

رواية

محمد فرحات

# قائد ولسن الطاهين

QADUS ALTAHIN

1864

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع



قادر وس الطحين

اسم الكتاب: قادوس الطحين

اسم المؤلف: محمد فرحات

تدقيق لغوي: مؤسسة العماد

تصميم الغلاف: يوسف السيد

الإخراج الداخلي: ساندي شريف إبراهيم

رقم الإيداع: 2022/5054

الترقيم الدولي: 978-977-6935-50-9

### جميع الحقوق محفوظة ©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه

للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة.

وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

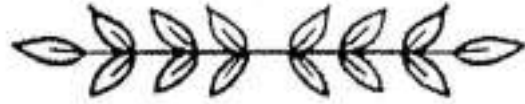


[darerteqaa@gmail.com](mailto:darerteqaa@gmail.com)

+201029303589

محمد فرجات

# قادوس الطحين



ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع



(١)

## أمام طاحون قرية كوم البقر ١٨٦٤ م

اجتمع الناس بالقرب من الطاحون، تلفحهم حرارة الشمس ووهج القيظ، يتهايمسون ولا يكفون عن نسج الخيالات حول مقتل عامل الطاحون وقد استظل بعضهم في ظل النخيل المجاور للطاحونة، على مقربة منهم أخرج شوقي نوار بك مأمور المركز وهو أعلى فرسه منديلاً جفف به عرقه وأمر عساكره أن يزيحوا الناس بعيداً، انتحى العمدة جانباً بالمأمور وتحدثا...، جلست العجوز جانباً تذرف الدمع وتلطم الخد وتهيل تراب الأرض على رأسها، ظلت خيوط دموعها تنساب على وجنتيها المليئة بالندوب والتجاعيد حتى جفت تماماً، قام الرجل متحاملاً على نفسه والهواجس تفترس عقله بلا هوادة وهو يقترب من أمه العجوز يحثها على التماسك ويلقنها ما ستقوله أمام جمع الحكومة كما طلب منه.

قبض الكاتب على طربوشه بيد وراح يجفف صلغته بمنديل باليد الأخرى،  
وشرع يخط بقلمه ما يمليه عليه المأمور:

إنه في يوم تاريخه... قد تلقينا إشارة من عمدة قرية كرم البقر بواسطة أحد  
خفرائه تفيد بأن المذكور بالإشارة المرفقة قد مات أثناء تأدية عمله في  
الطاحون الكائن بأطراف القرية والمملوك لورثة الشيخ إبراهيم البنهاوي  
ويمثلهم أخوهم الأكبر العمدة عبدالرحيم البنهاوي وأنذي

تربطه بالقتيل قرابة نسب، وقد حضر كلا من شوقي نوار بك مأمور المركز  
كما حضر ناظر القسم وشيخ الخط وعمدة القرية ومشايخها وندب معهم  
من عدول المحكمة وخدامها ومن يُعتمد عليه في ذلك، وكُشف على القتل  
فوجد ميتاً لا حركة فيه ولا روح، كما وُجد برقبته من الجهة اليسرى جرح  
كبير قُطع منه الجلد وأسيل الدم وهو ملقى على ظهره قريباً من باب  
الطاحون، وكُشف على الطاحون المذكور فوجد على قاعوسها أثر من دمه  
كما وجد بأرضها ثلاث محلات بها أثر الدم، هذا ما وُجد ومُحرَّر عليه  
الكشف المذكور، وعند سؤال العمدة وشيخ الغفر وأقارب القتل اتضح  
واستقر في وجداننا الآتي: بينما القتل واقف بجوار القادوس يباشر عمله إذ  
أصاب رأسه قوس الطاحون في حال دورانه فأدى إلى كسر رقبته فسقط ميتاً،  
وعليه فقد أمرنا بدفن الجثة، وكُتب ذلك ضبطاً للواقع ليُراجع عند أمس  
الاحتياج وليُعرض على من له ولاية الأمر في ذلك ليُرتب على كل أمر  
مقتضاه، وعلى ما جرى وقع التحرير في الخامس عشر من ذي الحجة للعام  
ألف ومئتين وثمانية وسبعين من الهجرة)



## أواخر عام ١٨٦٢ م

عاد محمد سعيد باشا والي مصر إلى الإسكندرية قادمًا من أوروبا، وقد تمكن المرض منه بعدما فشلت رحلة علاجه ودنت شمسُه من الغروب، بينما ظل اسماعيل في القاهرة منتظرًا الأنباء المبشرة بارتقائه سدة الحكم بعدما بات مستقرًا في وجدانه أن رقدة عمه (محمد سعيد باشا) لرقدة موت لا يعقبها قيام، بيد أن شجرة العمر لم تثقلها السنين.

... انتصف الليل ولم يعد بوسع (بسي بك) مدير المخبرات التلغرافية أن يُغالب النوم من فرط ما نال منه الإعياء والسهر، فهو لم يغادر عدته منذ ثمان وأربعين ساعة منتظرًا ورود إشارة برقية من الإسكندرية تنبئ بموت محمد سعيد باشا، وقد جرت العادة أن يُنعم بلقب (بك) على أول من يحمل إلى الوالي الجديد خبر ارتقائه سدة العرش، وأن يُنعم عليه بالباشوية إذا كان بيكًا، وبعد محاولات مريرة من الصمود باءت جميعها بالفشل قرر مضطرًا الاستسلام للنوم فاستدعى أحد موظفيه وكان يدعى شوقي نوار، وأمره بالقيام بجانب العدة، ريثما ينام هو قليلًا ووعدته بجائزة خمسمائة فرنك، فتظاهر الموظف بفرحه بالخمسمائة فرنك ولم يكن يجهل عادة الإنعام التي

يُنعم بها الولاية الجدد، ما إن استلقى بسي بك على إحدى الكنبات وخلد إلى النوم حتى وردت من الإسكندرية الإشارة المنتظرة فتلقاها الموظف وهرع إلى سراي الأمير اسماعيل وطلب المثل بين يديه ولا يزال الأمير مستيقظًا، وما إن دخل الموظف حتى جثى أمام الأمير وسلمه الإشارة فقرأها اسماعيل فانفجرت أسارير وجهه فشاركه رجاله المحيطون به فرحه وأخذوا يهتفون، نظر اسماعيل مبتسمًا إلى الموظف الجاثي أمامه قائلاً له:

- انهض يا بك

ابتسم الموظف وهو لا يزال جاثيًا وقال:

- ولكني ما زلت أطمع في كرم أفندينا.

قال الخديوي: قل ما عندك فاليوم عيد.

- منذ أن التحقت بالميري منذ عشر سنوات وأنا بعيد عن بلدي، أريد أن أعود إلى بلدي بوظيفة تليق بالباكوية.

ابتسم الخديوي وقال: انهض يا بك، وعود إلى بلدك مأمور مركزك.

نهض الموظف مسرورًا ولسانه يلهج بآيات الشكر والعرفان، يرفع يديه ويخفضها وانصرف بعدما أذن له الأمير.

تلقف شوقي الإشارة التي سقطت من يد اسماعيل وسط التهاني والتبريكات وعاد مسرعًا إلى مصلحة التلغرافات ودخل بالإشارة على بسي بك ومنحه إياها بعدما أيقظه، فأعطاه بسي الخمسمائة فرنك طبقًا للاتفاق المسبق، أسرع بسي بالإشارة إلى سرايا الأمير إلا أنه صدم بخيانة موظفه الذي لم يكتفِ بالخيانة فقط بل واستخلص خمسمائة فرنك أيضًا، فعاد بسي إلى مصلحة مستشيطًا وأحضر موظفه يعنفه، فتفاجأ برد فعل الموظف الذي قال: (صه! فإني أصبحت بيكًا مثلك بل ومأمور مركز)، فلم يكن لبسي إلا أنه ألجم تمامًا.



وزيت جثة محمد سعيد باشا في مرقده في الروضة المسورة الكائنة في سفح  
قلعة الديماس بجوار مسجد النبي دنيال، بعدها أسرع كبار القوم وقناصل  
الدول إلى سراي اسماعيل ليهنئوه، وأقيمت الولائم والأفراح، ووزعت  
والدة اسماعيل الهدايا النفيسة على أرباب الدولة والعلماء والمشايخ،  
وأقيمت الأذعية في المساجد أياماً.



( ٣ )

على مقربة من دوار العمدة أوقف رجل خمسيني يدعي سالم عربته فوقفت العربتان التاليتان تباعاً، هبط من أعلى عربته ممسكاً بمقطف مجدول من خوص النخيل به تبين ليضعه أمام حمارة مشيراً لمن خلفه أن ينتظروه لحين يناديهم، تلفت يمناً ويسرة متفقداً المارة ثم تقدم بجسده النخيل من رجلاً ناحية الدرجات المفضية إلى مندرة العمدة. وهي حجرة فسيحة في الطابق الأول من الدوار، تفتح على الفناء والشارع معاً وتتجه نحو الشمال بسقف مرتفع يسمح للهواء أن يتجول بحرية، وتردان واجهتها بعمدان رخام كما يحيطها دريزين من الخشب، اعتاد العمدة الجلوس فيها صباحاً يستقبل الفلاحين ويستمع إلى شكواهم التي لا تنقطع، أما بخصوص السحاصيل أو خلافات بينهم، حينما رمق العمدة الثلاث عربات فهم المطلوب، فأشار لعرفه بالسماح لسالم بالدخول وأمره بالجلوس إلى أن ينتهي الشيخ من التلاوة، جلس سالم أرضاً حتى أنهى الشيخ محفوظ تلاوته والذي عقب قائلاً:

صدق الله العظيم.... نهدي هذه التلاوة إلى روح المرحوم إبراهيم البنهاوي.  
صمت الشيخ محفوظ قليلاً ثم اتبع:



تعيش وتفتكر يا عمدة، ربنا ما يقطع لجنابك عادة، اليوم الذكري العشرون  
لوفاة العمدة الكبير الشيخ إبراهيم رحمة الله عليه.

قال العمدة: السنين تمر يا شيخ محفوظ وكل مدى يُوحشنى فراقه.  
عقب محفوظ قائلاً: حق لك ذلك فالشيخ إبراهيم البنهاوي العمدة الكبير  
رحمة الله عليه لم يكن أحد بالزمام كله في عقله وحسن تديره، فقد حمى  
البلد بأكملها من أذى العربان وأرغمهم على التوطين بعدما كانوا رحالة  
يستمتعون بأذية الناس ونهبهم.

ثم أشار بيده ناحية الجرن وأكمل:

لقد شهد هذا الجرن حرباً ضروساً مع العربان لم نفز فيها إلا بسبب حكمته  
وحسن تخطيطه بعد فضل الله.

قال العمدة: عجيب أمر هذه الدنيا، الانسان منا يملأ الدنيا ضجيجاً وصخباً،  
يبنى ويعمر يقلع ويزرع، وحينما يموت يصبح عبثاً على أهله يستعجلون  
بموارته التراب ليكون وجبة دسمة للددود، ما الحكمة من الموت يا شيخ  
محفوظ؟، فما أصعب الفراق وما أشد عذابه؛ فالله أنشأ هذا الإنسان من  
عدم، ثم أوجده طوراً بعد طور، وخلقاً بعد خلق؛ حتى صار بشراً سوياً  
يسمع ويبصر ويعقل، ويتكلم ويتحرك، ويسالم ويخاصم، ويتزوج  
ويتناسل، ويعيش على أرض الله، وينال من رزقه، ثم بعد ذلك كله يميتته الله؟  
قال محفوظ بعدما اعتدل في جلسته: الله خلق الموت والحياة ابتلاءً لعباده  
واختباراً لهم؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه

ثم وضع الشيخ يده اليمنى على أذنه اليمنى وقال بصوته الندي:  
﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلِغَكُمْ إِلَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

عقب الشيخ:

فما يحصل للإنسان من الحزن، والألم بفقد الأحبة، وحدث الآلام والمصائب، فهو من لوازم وجوده في هذه الدنيا، وعليه أن يصبر على ذلك، ويعلم أن هذه الدنيا قصيرة، سرعان ما تمر، ثم تعقبها الدار الآخرة التي هي دار الجزاء، فلولا الموت لما هنى لهم العيش، ولا طاب في هذه الأرض، ولا وسعتهم الأرزاق، ولضقت عليهم المساكن والمدن، والأسواق والطرق، الموت يخلص المؤمن من نكد هذه الحياة التي حشيت بالغصص، وحُفَّت بالمكاره والآلام الباطنة والظاهرة، إلى نعيم لا ينفد، وقرّة عين لا تنقطع، وسعادة لا تنتهي في ظلال وارفة، وبساتين مؤنقة، وجنات دائمة، مع خيرة الرفقاء، وأطيب الأصدقاء.

سكت العمدة ولم يعقب وهو يهز رأسه إيجاباً، هم الشيخ بالانصراف فلم يستيقه العمدة، بعدها هب سالم قائماً، لثم على يد العمدة ثم قال:  
- أبشرك يا جناب العمدة أني أطوف بالخطوط كلها والقرى المحيطة، ودائمًا ما أسمع الحكايات عن عقل وحكمة الشيخ إبراهيم رحمة الله عليه، وكيف أذل العربان وأسرههم، وأمن الفلاحين من جورهم وأذاهم.  
تبسم العمدة لذكاء الرجل وسأله:

- ما اسمك؟

- سالم

تقلف العمدة سيفًا ذهبيًا عريضًا انعكس عليه الضوء فأظهر لمعانًا

- تعرف ما هذا يا سالم؟

- سيف يا جناب العمدة.

- هذا ليس أي سيف يا سالم، هذا سيفًا تلقاه الشيخ إبراهيم كمكافأة من الباشا الكبير محمد علي باشا منذ أكثر من ثلاثين عامًا مكافأة له على نجاحه

في إجبار العربان على التوطين وسكن البيوت بدلاً من الترحال وسكن الخيام .

قال سالم: نعم السيف لنعم الفارس، رحمة الله على الفارس وبارك في الوارث جناب العمدة عبد الرحيم بك.

تبسم العمدة ثانية وضيق عينيه يتفحص بهما سالم وقال:

- أنتم عَجْر أم نَوْر؟

- عَجْر

- أنعم وأكرم، ماذا عندكم؟

- نقرأ الطالع ونرسم الوشم ومعنا أرجوحة سننصبها.

- وماذا لو سرق شيء من البلد؟

- رقبتي

- جاك حش رقبتك.

ابتسم سالم بعدما تحسس رقبته وقال: فذاك يا عمدة.

قال العمدة: لا مانع من إقامتكم مؤقتاً.

ابتسم سالم وتهلل وجهه فرحاً، وأشار بحماسة لمن على العربات بالقدوم

سريعاً، ولما جاءوا، قال سالم:

- هموا على يد العمدة فقبلوها.

تقدمت عجوز سبعينية ترتدي ملابس مزركشة ذات ألوان فاقعة، يتدلى من

أذنيها قرط كبير من الفضة وهلال النحاس اللامع يتأرجح في طرف أنفها،

تبسمت فتكشفت عن ستين ذهبيتين، اقتربت من يد العمدة وهمت لتقبلها،

فعاجلها العمدة بالرفض وسحب يده.

قال سالم: أمي يا جناب العمدة.

ثم تقدمت شابة عشرينية جميلة، اقتربت من يد العمدة لتقبلها، فلم يسحب

يده.



قال سالم: زينة بنتي.

أخفى العمدة عجبه الشديد بالغجرية الشابة، صبية رشيقة القد، بيضاء البشرة وردية الوجنتين، ذات عينين عسليتين واسعتين مكحولتين وشعر ثقيل تفننت في تصفيره، ذات وشم أزرق يمتد من الشفة السفلى إلى الذفن في ثلاثة خطوط متوازية، سحبت الطرحة تخفي وجهها خجلاً لما رأت العمدة مبحلًا فيها.

زاغت عينا العمدة ارتباكًا وتقلبت ملامحه، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة ليتلاشى اضطرابه

أكمل سالم:

- وهذا عوضين ابن أخي.

تبخرت كل عبارات التقديم التي ينشدها سالم ولم يجد العمدة بداً من أن يرحب.

تقدم عوضين ليقبل يد العمدة فلم يسحبها.

قال العمدة: لا مانع لدينا من إقامتكم شهراً، ولو اشتكى الناس منكم سترحلون في الحال، ولو سُرق شيء ففيه رقبتكم، ولا مانع أن تأتي ابتك لتخدم في الدوار.

قال سالم فرحاً: خدمتنا لكم شرف لنا، هل تسمح لأمي بأن تقرأ لجنابك الودع؟

ابتسم العمدة ولم يمانع، فجلست العجوز أرضاً، فتحت منديلاً ووضعت به بعض الرمل ثم أخرجت الودع من مقطف مجدول من خوص النخيل، فركتهم بين يديها ثم ضربت الودع وحركته بشكل عشوائي، وبعد تمتمة كلمات غير مسموعة قالت:

هناك شيء يؤرق نومك ويقض مضجعتك، طال انتظارك والفرج قريب ومن بعد الفرج ضيق ومن بعد الضيق فرج.

---

فغر العمدة فاه ولم يعقب، ثم أشار لهم بالانصراف ونادى العمدة على  
خفيته:

- يا وند يا عرفة

- أمرك يا عمدة

- أريد الولد حسنين (المزين) يكون عندي صباحاً.

(٤)

### يوم الجمعة ٣ ابريل ١٨٦٣ م

استقل السلطان عبد العزيز (١) ومعه ابنه الأمير يوسف عز الدين ووزير البحرية فؤاد باشا ووزير البحرية القبطان محمد باشا وحاشية كبيرة في اليخت السلطاني "فيض جهاد"، واستقل وراءهم عدد كبير من الياورانات والضباط والموظفين سفنًا عثمانية أخرى، وأبحر الجميع من الأستانة متجهين إلى مصر.

في ميناء الإسكندرية احتشد على الشاطئ جمع غفير وسطد موسيقى عسكرية، لاحت في الأفق السفن العثمانية التي توقفت عند أقرب نقطة تستطيع الرسو فيها، أطلقوا المدافع تسليماً فردت المدافع المصرية إيجاباً، نزل الخديوي اسماعيل ومعه عمه حلیم باشا وغيره من أكابر رجاله في زورق فخم قاصدين اليخت العثماني لتهنئة السلطان ورفاقه على سلامة الوصول، لما سلموا وهنأوا ركب الجميع الزوارق وكلما اقتربوا من الشاطئ قاصدين سراي رأس التين التي أعدت إعداداً فخماً لنزول الركاب السلطانية، تعالت أصوات الجموع المحتشدة مرحبين (أفندم جوق يشا)



والسلطان يشير لهم بيده، أمام باب السراي فرقة من الجنود ترتدي الملابس العسكرية لتقدم التحية، ونادى الجنود بأعلى صوت (بادشا همز جوق يشا).

عند الأصيل حيث تصفر الشمس لمغربها خرج السلطان راكباً واسماعيل على يساره أفخم عربات القصر المكشوفة تجرها أربعة جياذ ناصعة البياض، يحيط بها الحرس من الأمام والخلف، تلي العربة الفاخرة عربات ثقل أمراء البيتين العثماني والعلوي، اجتازت العربات شارع رأس التين فشارع الميدان فشارع نوبار فالمنشية وباب رشيد، اكتظت الشوارع بالمتفرجين وقوفاً على جانبي الطريق، تزينت الشوارع بالرايات والأعلام الخفاقة كما ازدانت بالمصاييح الملونة، كما اكتظت نوافذ البيوت وأعلى أسطح المنازل بالنساء والأطفال حيث دوت الزغاريد والتهاليل.

في المنشية الأهلة بالأجانب كانت القبعات تلوح في الهواء وصيحات الابتهاج تملأ الفضاء، والسيدات يشرون من النوافذ باقات الزهور. لما فرغ السلطان من المرور عاد إلى سرايا رأس التين واستقر في قاعة جلوسه، دوت الألعاب النارية التي سر لها السلطان وأخذت تتساقط أمام نوافذه بأشكال أهلة ونجوم.

في اليوم التالي استقبل قناصل الدول القادمين للتهنئة بسلامة الوصول ولما كانت ساعات العصر خرج عبد العزيز واسماعيل وحاشيتهما لمشاهدة القسم الغربي للمدينة....

(١- غداة سقوط دولة المماليك في مصر والشام عام ١٥١٧ م، واستيلاء العثمانيين عليهما دخلت مصر في حوزة الحكم العثماني وكان ذلك حينما أرسل السلطان سليم الأول رسالة إلى قائد المماليك بمصر «طومان باي» تطالبه بالتسليم والخضوع لدولة الأتراك التي كانت قد ضمت حلب والشام وغزة وبدأت ترنو لحكم مصر، أهم ولايات الشرق العربي، إلا أن الحاكم

المملوكي رفض التسليم، وانتهى الأمر بهزيمته في موقعة الريدانية وشنقه السلطان وعلق جثمانه على باب زويلة، وزالت دولة المماليك التي استمرت مئتين وسبعة وستون عامًا، بعدها أصبحت الدولة العثمانية أكبر كيان سياسي حول البحر المتوسط منذ الإمبراطورية الرومانية، واحتفظت مصر بمكانة خاصة في الدولة العثمانية، وكفل لها نشاطها التجاري والاقتصادي ومكانتها الثقافية تعويضًا جزئيًا عن اضمحلال مكانتها السياسية، ورغم ما لمصر من مكانة إلا أنه لم يرق أحد من سلاطين آل عثمان بزيارة مصر منذ فتحها، وبعد استقرار أسرة محمد علي باشا في حكم مصر بداية من عام ١٨٠٥ م لم يعد المصريون ينظرون إلى آل عثمان نفس نظرهم الماضية؛ فالسلطان الذي يحسون به باستمرار هو الوالي من أسرة محمد علي، لذا رأى ساسة الأستانة أن يعيدوا إلى أذهان المصريين فكرة الولاء للسلطان فتم ترتيب زيارة للسلطان عبدالعزیز إلى مصر.

## (٥)

في أطراف القرية نصب العجر خيامهم أسفل أشجار النخيل حسبما أرشدهم  
عرفة، نامت زينة داخل الخيمة من فرط التعب، بينما وقف عوضين ينصب  
الأرجوحة وحده وقد تجمع حوله رهط من أطفال القرية حفاة الأرجل،  
بملايس مهترثة يقفون صفاً وفي يد كل طفل إما بيضة أو كوز ذرة أو حفنة  
دقيق، يقدمونها كأجرة نظير ركوبهم الأرجوحة، جلست العجوز أمام الخيمة  
وبجوار منها سالم يغزلان منخلاً من شعر الخيل، قالت العجوز:

- فيم كنت تتحدث مع العمدة قبل أن تناديننا.

تنهد سالم قائلاً:

- نحن معشر العجر غالباً نسبب قلقاً في أي مكان نتواجد فيه، لذا يرفض  
العمدة تواجدنا في بلادهم، فكان ولا بُد للرجل من مدخل يجعله يحمي عما  
ضمير في نفسه وكاد يلفظه، فوجدته لا يزال يذكر مآثر أبيه الذي مات منذ أكثر  
من خمسة وعشرين عاماً، فأمسكت طرف الخيط وظللت أغزل، تحدثت  
عن سيرة أبيه الحسنة التي تطوف البلاد، وعن ذكاء وفطنة وحكمة أبيه قائد  
الحرب والسلام، حكيم العرب والعجم إلى أن انتشى فوافق على الفور.  
قالت العجوز: وأين سمعت كل هذا عن أبيه.



سالم: ما سمعت عن أبيه قط.

ابتسمت العجوز لفظنة ولدها، بينما أكمل سالم قاتلاً:

- صحیح یا أمی، بمناسبة ما قلته للعمدة، ما الشيء الذي يؤرق نومه، وما الفرج بعد ضيق ثم ضيق بعد فرج.

- لا أعرف يا ولدي، لقد أخبرني الجن حينما عزمت علي الودع أن هناك شيء يشغله ولم يزد عن ذلك شيئاً، أما الفرج بعد ضيق وضييق بعد فرج، فكلام قلته حشواً، فالدنيا لا تدوم على حال، فالיום فرج وغداً ضيق وهكذا، لا يعلم الغيب الا الله يا ولدي، ولو كنا نعلم الغيب ما كنا لنقف أمام الدوار وقلوبنا تخفق خوفاً من رفض العمدة لإقامتنا.

سالم: لاحظتي ما حدث له حينما رأى زينة؟

- نعم، ارتبك وحاول أن يخفي إعجابه ولم يفلح.

- وكلامه عن خدمتها بالدوار، هل سنتركها تذهب؟

- نعم سنتركها تذهب، نريد أن نقدم الأحداث فقط، نريد أن نعرف ماذا يحمل الرجل في جعبته تجاهها ربما كان السعد حليفها.



في الصباح طافت العجوز وحدها في القرية تتغنى بعبارتها الشهيرة:

- آيين زين آيين وأوشوش الودع.. مرة لشابة ومرة لجدع.. أقرأ الكفوف قرب وشوف.. هتسمع حكاوى بطعم الوجع!!..

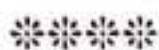
الشيخ محفوظ يقف مع زوجته يخلطان روث البهائم بالقش المهروس ثم يشكلانه أقراصاً يلصقونها بجدار البيت من الخارج لتجف، ليستخدموها بعد ذلك وقوداً للفرن، نادى زوجته على العجوز فعاجلها الشيخ قاتلاً: لما ناديت عليها؟

- أريد أن تقرأ لنا الودع، نريد أن نعرف لما تأخر زواج البنت؟

قال الشيخ غاضباً:

- أي ودع أيتها المرأة أما سمعتي قول النبي من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم  
تقبل له صلاة أربعين ليلة.

ثم قلب حاجبيه العريضين ورفع يده ملوحاً للعجوز أن تبتعد.



توجه سالم بابتته إلى دوار العمدة، فإذا بالعمدة جالس وبجواره ابن عمه  
جابر، ألقى سالم التحية

- صباح الخير يا جناب العمدة

وهم على يد العمدة ليقبلها إلا أن العمدة عاجله بالرفض  
أشار لهما العمدة بيده ليجلسا ولم يمعن النظر في زينة ثانية حتى لا يضطرب  
مجدداً، دخل حسين المزين مرتبكاً:

- السلام عليكم، صباح الخير يا جناب العمدة، خير إن شاء الله، أكيد خير  
ياذن الله، هو صدر مني حاجة عدم اللامؤاخذة، أنا كنت عند جنابك من  
يومين..

عاجله العمدة قائلًا:

- اسكت قليلاً، وكف عن الإزعاج.

أخذ حسين يرمق العجورية بنظرة تكاد أن تخترقها، ولم يتبه سوى على قول  
العمدة:

- جاءتك بعثة.

قال حسين وقد عاتت نبضات قلبه: بعثة؟ أي بعثة!!!... بعثة لبلاد  
الفرنجية؟؟ أنا قلبي كان حاسس إن فيه مصيبة...

ضحك العمدة فضحك الجميع، قال العمدة:

- نعم بعثة لبلاد بره!!، الخواجات ليس عندهم حلاقون بما فيه الكفاية،  
فشرعوا في طلبك، أرسلوا لنا يريدون حسين (المزين) بالاسم، لسد العجز  
لديهم.

ضحك الجميع بينما وقف حسنين تبرق عيناه وهو يسمع نبضات قلبه تخفق بعنف محاولاً فهم ما قاله العمدة.

قال العمدة:

- الموضوع هو أن مكتب الصحة أرسل للمركز يطلب ترشيح عدة أسماء لشغل مهنة حلاق صحة، والمركز أرسل لي لأرشح له حلاق مسحة يكون عين مكتب الصحة في القرية، وقمت بترشيحك لهم.

- صحيح يا عمدة، حلاق صحة؟ مستخدم ميري؟

قاطع العمدة: الصباح عرفة سيسلمك إلى المركز، والمركز يسلمك لمكتب الصحة، وفي مكتب الصحة ستقيم هناك اسبوعاً يدربونك.

- شكراً يا جناب العمدة، عقبال ما (نظاير) لك أولادك إن شاء الله

قال العمدة باقتضاب:

- طيب، هيا انصرف.

انصرف حسنين وهو يعاود النظر إلى العجورية وكاد أن يصطدم بالقلل الفخارية.

نظر العمدة إلى سالم متظاهراً بتجاهل سبب وجودهما

قال سالم: جئنا كما أمرت يا عمدة؟

- أمرت؟!، أمرت بماذا؟!!

- قلت لنا بأنه لا مانع من أن تخدم زينة بالدوار.

تنحى الوقار وتطلعت الأبصار، أخذ العمدة يرمق العجورية من أعلى للأسفل

ثم قال:

- أيوة أيوة، لا يوجد مانع، لكن ليس الآن.

أخرج العمدة من جيبة محفظة جلدية وأخرج نقوداً وناولها لسالم. قائلاً:

- سأشاور الست وأبلغك إذا كانت في حاجة إلى خادمة، هيا الآن انصرفا



همّ سالم بالانصراف وهو يجر أذيال الخيبة والإحباط، فما توقع أن ينتهي الحديث بخصوص زينة هكذا، فلم يُغلق له جفن طوال الليل وهو يتوقع كلاماً من العمدة ويرتب هو كلاماً يليق بجنابه، فإذا به يسمع العمدة قائلاً: اسمع، كما دخلت البند ياذن إياك أن تخرج منها الا ياذن، هيا انصرفا. - أمر جنابك.

انصرف سالم وابنته، تساءل جابر:

- خير يا عبد الرحيم، لم أرسلت في طلبي؟

قال العمدة: طلبتك لترى العجرية.

- رأيتها، وما المطلوب إذن؟

- رأيك فيها؟

- جمال عجري أصيل.

- أريد أن أتزوجها.

صاح جابر:

- تزوج هذه العجرية، أجننت يا عبد الرحيم؟

طلب منه العمدة أن يخفض صوته خوفاً من أن تسمعهما الجازية.

أكمل جابر بصوت خفيض: كيف لك أن تفكر في أن تجمع بين العجرية

وابنة الرحيمي؟ أنسيت لم زوجك أبوك من الجازية؟

- ما نسيت يا جابر، أصر عمك الشيخ إبراهيم على زواجي منها حتى لا

يُزاحمنا الرحايمة في كرسي العمودية، ولكن بنت الرحيمي على ذمتي منذ

ثلاثين عاماً وما رزقت منها بالولد، وليتها تعيش كأثى تتودد لبعلها، بل

عاشت مسرّجلة مستقوية بمالها وحسبها، تذكرني دومًا بأننا دخلاء على

القرية ولولا زواجي منها لكانت العمودية في بيتهم منذ زمن.

- سكت سنوات وسنوات لم تذكر هذا الأمر الآن؟ ويوم تقور أن تأتي بضرة لها لا تجد سوى الغجرية؟ والله إن هذا الأمر فيه نهايتك ونهايتنا، يتربص بك ابن الرحيمي مع ابن الهنداوي، وسيجدها فرصة ليسترد كرسيه المسلوب.

- لا تفخم الأمور يا جابر، ماذا يمكن أن يفعله الرحايمة فأهل القرية يحبونني، وماذا يمكن للجازية أن تصنع؟

- لا تراهن على الأجرية أن يقفو في ظهرك ويساندوك يا عبد الرحيم، فالجوع قطع بطونهم، ولو ذبح ابن الرحيمي عجلاً ودعاهم لهرعوا إليه معلنين ولائهم، وأما الجازية فلن أقول لك ماذا ستصنع، فاتحها في الأمر وستسمع وتري ما يمكن أن تفعله، أنت ستضيعنا جميعاً.

هم جابر بالانصراف فلم يستيقه العمدة، بينما ظل عرفة ينظر إلى العمدة ولم يتكلم.

(٦)

استلم فريد نوار بك وظيفته مأمورًا للمركز الذي تقع فيه قريته التي تسمى الإمامية والتي تجاور قرية كوم البقر، تكاثر عليه أهل قريته ومعارفه مهتمين ومباركين دون انقطاع، ومن المفترض أن يختلي بالمجلس الإداري كي يستشير في إنجاز الأعمال المركزية إلا أنه دائمًا ما كان يعوقه ملازمة أهله ومعارفه وجلسهم معه في حجرته الرسمية دون تكلف وتضييعهم وقته في محادثات لا طائل منها ولا تهم سواهم من الناس، ولكنه لم يجد من نفسه الشجاعة الأدبية الكافية لردعهم.

دخل ناظر القسم إلى مكتب المأمور ليستشيره في الترتيبات التي تخص مرور القطار الذي يقل السلطان وأفندينا والذي سيمر بالبندر فوجد المأمور شاردًا فسأله عما به فأخبره، فما كان من الناظر إلا أنه أشار مبتسمًا ناحية أحد القواصة الأتراك قائلاً:

- لن ينجدك منهم سوى هذا القواص، فللأتراك هيبة في نفوس المصريين، الأتراك عالي القامة ضخمة الجثة عظيم الشارب.



ونادى ناظر القسم على القواص ( الحارس ) واتفق معه يدخل فجأة على أولئك الأهل والمعارف بعد التأكد من وجود المأمور بينهم ليستقر في ذهنهم أن المأمور مغلوب على أمره أيضا، ويزجرهم ويظردهم من غرفته ووعده حال نجاحه في المهمة بهدية ذكر بط سيكافئه بها البك المأمور، فهم الحارس المطلوب وانصرف وتعجب المأمور من المكافأة قائلا:- ما هذه المكافأة الغريبة، ومن أين أتية بذكر بط؟ قال الناظر: أحباب البك المأمور كثير. شاور أنت فقط لأحد عميد الناحية واطلب ذكر بط واحد، سيرسل لك عشرة، ولا تنسني من واحد. وضحك الناظر عالياً .

## (٧)

في الصباح حضر أحد العساكر ممتطيًا فرسه، يحمل إشارة من المركز وأعلامًا، سلمها إلى العمدة الذي كان جالسًا مع وسط الفلاحين في مندرته، وقد كانت الإشارة مفادها بضرورة جمع ما لا يقل عن خمسين فلاحًا والوقوف بهم على محطة البندر صباحًا ليحيوا مرور قطار السلطان عبدالعزيز وهو في طريقه إلى القاهرة، حاملين العلم التركي الأحمر اللون والذي به هلال ونجمة، تسلم العمدة الإشارة وسط الجمع، فتنحى العسكري بالعمدة جانبًا ليلغمه طلب البك مأمور المركز الجديد وهو ضرورة إحضار ذكر بط ليقدمه مكافأة لأحد حراسه، في التو نادى العمدة على عرفة وأمره بإحضار عده ذكور بط، قال العمدة:

- هذا الذكر لحارس البك المأمور، وهذا الذكر لك، وهذه العشرة تذهب بهم إلى بيت البك المأمور شخصيًا وتبلغه سلامنا وتهانينا لتولية المنصب الجديد لحين زيارتنا له.

امثل القواصص للأمر من اليوم التالي  
فزع الناس على إثر دوي اصطدام الباب بالجدار فجأة، حيث فتح القواصص  
مصراع الباب بقوة دون استئذان.

وقف الرجل وقد قتل شاربيه الكثيفين حتى مس طرفيهما أذنيه، وحملق عينيه  
حملقة مروعة وهجم عليهم صارخا بصوت جهوري مخيف:

- يلا! سكر! كرتا! فلاح أدبسيز!

فنهض الجمع مذعورين وقد ارتعدت فرائصهم وما هي إلا لحظة وقد  
أخلوا المكان مهرولين يتسابقون ويتدافعون إلى الباب، وقد كان أولهم هربا  
هو شوقي بك لشدة ما وقع في نفسه من هيئة قواصصه وهول منظره.





(٨)

جلست الجازية على أريكة مكسية بحشيات ووسائد حريرية، وقد فردت ساقها لجاريته التي راحت تدلك قدميها برفق، تقدم العمدة واستقل كرسيًا على مقربة منهما وأشار لجاريته بالانصراف فاستجابت بعدما نظرت نسيدها فأذنت لها، تساءل العمدة: منذ متى ونحن متزوجان؟ أجابت الجازية باستغراب: منذ ثلاثين عامًا.

قال العمدة: بعدما توليت العمودية بعد وفاة أبي رفضت استلام مسموح المشايخ واكتفيت براتب ضعيف لا يُطعم زائري الدوار من رجال الحكومة خبز شعير، أتعلمين لمّ لم أستلمهم؟ أنصت الجازية ولم تسأل، من الواضح أنها فهمت مراده من تلك الديقاجة. أكمل العمدة قائلاً: لم أجد دافعاً كي أجهد نفسي في زراعة تلك الفدادين، ولا يوجد ولد يكون عزوة لي وسند ووارث.

قالت الجازية وعلا صوتها: الأرض سند وقد تحقق هذا السند بوجود إرثي تحت يديك وهي أرض خصبة جعلتك تستغني عن فدادين الحكومة البور التي سبذل فيها جهداً ومالاً وربما لا تجني ثمارها أبداً، ثم إنها بموتك أو

إقالتك لن تؤول لك أو إلى ورثتك بل تستردها الحكومة، وأما العزوة فأنت دخيل على تلك القرية لا أهل لك وقد كنا نحن الرحايمة عزوتك وأهلك، وقف الرحايمة في ظهرك ولم ينازعوك الكرسي بعد موت أبيك تنفيذ الوصية أبي الشيخ بدر الرحيمي، وتصديت أنا لأخي عثمان أكثر من مرة ومنعته عنك حتى لا ينازعك كرسي العمودية وهو أحق به منك، فلو لا الكرسي فلا سلطة لك، وبدون الرحايمة فلا عزوة لك في بلد أنت دخيل على أهلها، ولو لا أرضي فلا مال؛ فكل ما تركه أبوك عشرة فدادين، لعرفة منهم فداناً واحداً، ولو طالبك أخواتك البنات إرثهم ما تبقى لك شيء.

سكت العمدة قليلاً يستجمع شتات نفسه وقال:

- أما أرضك فأكسبني هيبة بين الناس وخنوعاً بين يديك متحملاً سلاطة لسانك، وإيرادها جميعه ألقيته في حجرك دون أن اقتطع منه شيئاً لأحفظ ما تبقى من ماء وجهي، وأما أخوك فني معسكر ابن الهنداوي يخططون لإزاحتي منذ زمن بافتعال مشاكل لإحراجي أمام رجال الإدارة وتظاهرين بالغفلة.

سئمت الجازية من الحديث قائلة: هات ما عندك يا ولد البنهاوي وأوجز. قال العمدة: أريد أن أتزوج رغبة في الولد وأنت سيدة الدار، تكون هي في خدمتك وتحت طوعك.

- العجرية؟

لم يتعجب العمدة فهو يعلم أن جاريتها لا تكف عن استراق السمع بإذنها وقال: نعم.

قال الجازية: ولم تجد سوى العجرية تكون لي ضرة تكيدني، وإذا أنجبت الولد فلن تحترم وجودي، فحينها سأثور لكراحتي، دعني أختار لك بنتاً من بناتنا في العائلة ذات أصل، تربت على أيدينا وتقدر مقامي، وإذا مالت استطعنا أن نقوم اعوجاجها ونعيدها إلى رشدها.

قال العمدة: يكفي من الرحيمة واحدة يا جازية فلن أتزوج سوى العجربة.  
- إذن يكون لي الحق في أن أرفض هذا الزواج، لأنك متعمد العجربة لتذلني  
ولن يكون

- لكي كامل الحرية والاختيار  
- وأطلب منك الطلاق مستعيدة أملاكي من تحت يديك، وأقوي قلب  
أخي حتى يسترد حقه المسلوب وتعود العمودية إلى أصلها الذي حادت  
عنه.

قال العمدة: إن كان لقلعك ربح انفضيه.  
أمرت الجازية جاريتها أن تجمع لها ملابسها لترافقها إلى بيت أخيها.  
(مسموح المشايخ: وهي أراضي معفية من الضرائب تمنح للمشايخ نظير  
قيامهم بواجباتهم التي تكلفهم بها الحكومة تستردها الحكومة بوفاة العمدة  
أو عزله)



(٩)

ركب الجميع العربات المكشوفة التي تجرها الخيول متجهين إلى المحطة حيث كان في انتظارهم القطار المعد ليقلمهم إلى القاهرة عاصمة الديار المصرية، صعد السلطان إلى صالونه الخاص كما ركب اسماعيل وفؤاد باشا والأمراء العثمانيين والعلويين ورجال الحاشية.

قطع القطار سهول الوجه البحري، وكلما مرّوا على محطة يلاحظ السلطان تراحم المحبين حولها تاركين أعمالهم طواعية! رافعين أعلامًا حمراء يتوسطها هلال ونجمة، يحيون بها مرور السلطان، ولما مرّ القطار على محطة طنطا تذكر اسماعيل حكاية فقرر أن يحكيها للسلطان على سبيل الفكاهة والتسلية فقال:

- لما جعل محمد سعيد باشا الخدمة إجبارية على الجميع تجمهر نساء الريف المجاور حول سراياه بطنطا يصحن، وبلغ من بعضهن الحمق مبلغه، حيث أقبلن بعضى صائحات، حتى لمحت إحدى تلك النساء ناظر المحطة الإفرننجي واقفًا على رصيفها القريب من القصر فنادت زميلاها وأشارت إليه قائلة: ها هو النصراني الذي يسير أولادنا في عربات النار هموا لنتقم منه،

فتحول تيار سخطهن صوب ذلك المسكين وهجمن عليه كمجنونات وهن يصحن لنقتله لنقتله، وفر الرجل من وجوههن هائمًا خائفًا واقتفين أثره ومازال يجري وهن يطاردنه حتى وصل باب السرايا فاقتحمه خائفًا مذعورًا، وبعد أن أوصده وراءه صعد وسقط على قدمي سعيد باشا هاتفاً انقذني يا مولائي، وأخبره الخبر، فأخذ سعيد باشا يقهقه وكاد يستلقي على ظهره من كثرة الضحك وكانت هذه عادته حينما يضحك.

ضحك السلطان لضحك اسماعيل وضحك الحاضرون.

مر القطار بكوبري بنها ثم بطوخ حتى وقف القطار بهم أخيرًا بالقرب من قصر النيل، نزل الجميع وسار الموكب السلطاني من قصر النيل إلى سراي القلعة عن طريق شارع كوبري قصر النيل فباب اللوق فحسن الأكبر فباب الخلق، زينت تلك الشوارع بأبهى زينة متألقة بأجمل الأنوار مكتظة بأناس هاتفين بالتحية السلطانية ناثرين الزهور، حارقين البخور وقد انتشرت بينهم الجوقات الموسيقية تصدح بالسلام الوطني، بينما النساء والأطفال فوق الأسطح والنوافذ مهللين، جهزت سرايا القلعة لنزول الضيوف، استراح السلطان وتناول العشاء، لحظات ودوت حوله الآفاق المؤذنة بصلاة العشاء، تألقت الزينات وأشعلت ألعاب النار فشقت كبد السماء، وأنثرت الأهلة والنجوم متباينة الألوان.

في اليوم التالي بعد أن صلى السلطان الجمعة بمسجد محمد علي بالقلعة، توجه لزيارة قبر الباشا محمد علي، ثم عاد إلى سرايا القلعة مستقبلاً وفود المهنيين من العلماء والبطاركة والوجهاء والأعيان والتجار، أعجب السلطان من تفنن صانعي الألعاب النارية وطلب بعضهم ليأخذهم معه القسطنطينية.

اختار اسماعيل أربعة فقط من رجال الدين ليمثلوا بين يدي الحضرة السلطانية، وهم الشيخ مصطفى العروسي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ السقاء، والشيخ عليش، والشيخ العدوي من كبار علمائه، وكان الأخير لا ترهبه العظمت البشرية.

كلف اسماعيل قاضي القضاة التركي لتعليمهم آداب المثل بين يدي السلطان، فأفهمهم أن المقابلة ستكون في قاعة يقف السلطان في صدرها على منصة مرتفعة، وأنه ينبغي لهم إذا ما بلغوا الباب ووقعت أعينهم على جلالته فعليهم أن ينحنوا انحناءً عظيمًا ويسلموا بكلمات اليمين حتى تمس الأرض ثم يتقدم كل منهم نحو السلطان بخطوات موزونة، حتى إذا صار أمامه كرر الانحناء والتسليم حتى يرد عليه السلطان تحيته، حيثذ يعيد الانحناء والتسليم مرة أخرى ثم يرجع متقهقراً ووجهه إلى السلطان إلى أن يبلغ باب الدخول فيكرر الانحناء والتسليم ثم ينصرف مثلما دخل حتى يتوارى عن نظر السلطان.

تعجب العلماء كيف لهم وهم علماء الأزهر أن تنحصر المقابلة في تلك الصور من الانحناء والتسليم، ولما جاء دورهم في المقابلات دخل الشيخ العروسي أولاً فالشيخ السقاء بعده فالشيخ عليش وفعل كل منهم ما علمه القاضي أن يفعل.

فلما أتى دور الشيخ العدوي قال:

- وهل ضيع الدين الا الملوك وأخبار سوء.  
ثم دخل على السلطان.



(١٠)

تسلم حسنين وظيفته كحلاق صحة ومن يومها وهو يخوض حرباً ضروساً ضد متطفي المهنه، فهب كالمجنون للذود عن كيانه فسعى واستشفع بكل شفيع لغلق الصالونات غير المرخصة، ولكن ذهبت مساعيه أدراج الرياح، فمكتب الصحة لا يهتم بمثل تلك الشكاوى سوى في المراكز والمدن الكبيرة. دائما ما يردد لزيائنه وهو يضرب كفا بكف

- كل من هب ودب يريد أن يكون حلاقاً بل ويفتح صالوناً!! فإن تكون طبيياً أيسر كثيراً من أن تكون حلاقاً، ثم أنشد قائلاً:

هزلت حتى بدا من هزالها كلاها... وحتى سامها كل مفلس  
الرجل ثرثار حقاً يعمل ببطء ويستهلك وقتاً طويلاً كي يقنع زبائنه بأنه يبذل  
جهداً كبيراً يستحق عليه المزيد من المال، يتناقش معهم في كل شيء، ولكن  
سرعان ما تخفت تلك الثرثرة وتلاشى في الأعياد، فتخف يده كي ينجز  
جموع المنتظرين، يرى الرجل أن طريق الحلاقة ليس سهلاً وعليك أن تدلل  
تلك الصعاب والمخاطر، وإن كان ولا بُد من امتهائها فلا بُد وأن تستقي  
أصول الصنعة منه لا من غيره، فهو يرى أن هناك ثلاثة أسس علمية لا بد من  
الارتكاز عليها حتى يتسنى لك ممارسة المهنة...

( ١١ )

هب العمدة قائما لما أبلغه عرفة أن المأمور الجديد قد وصل أمام الدوار، يتهاوى استعلاء العمدة دائما حينما يسمع كلمة المأمور، أي مأمور حي كان أو ميت، كاد أن ينكفي ويتعثر في ثيابه هو يهبط درجات المندررة سريعا ليقف مستقبلاً المأمور الذي جاء راكباً حصان حكومي في جمع من عساكره. قال العمدة وهو يرفع يديه بمحاذاة رأسه ويخفضها:

- يا مرحبا يا بك، يا مرحبا يا حضرات. انزل يا بك خذ واجبك.

أخرج المأمور وهو أعلى فرسه منديلا جفف به عرقه وقال حائقا:

- الله الله يا عمدة، تجلس في مندرتك مستظلاً ممدداً قدميك تشرب الماء البارد دون أدنى استشعار بالمسؤولية، ألا ترى كيف زاد منسوب مياه النيل وأصبح يهدد الجسور، كان من المفترض أن تكون على رأس الجسور أنت والفلاحون لتدعموا المواضع الضعيفة حتى لا تنقطع فتغرق الزراعات والبيوت.

ثم غمز المأمور إلى أحد عساكره، فصاح العسكري قائلاً:  
- اسمع يا عمدة، أنت الآن أمام عهد جديد لا مكان فيه للتسيب والاستهتار،  
وأني تقصير سيراه البك المأمور فلا بد وأن يردعه بكل قوة وحزم.  
وجه العمدة رأسه ناحية المأمور قائلاً:

- يا جناب البك لا يوجد تقصير ولا شيء، طوال الليل أنا ومشايخ البلد  
والخفراء والفلاحون ندعم ونحرس الجسور ولم نتم بعد.  
وتوجه العمدة برأسه ناحية غفيره عرفة قائلاً:

- أليس كذلك يا عرفة؟

أجاب عرفة على الفور:

- حصل يا جناب العمدة.

قال المأمور:

- لا أصدقك يا عمدة.

توجه العمدة ثانية إلى عرفة قائلاً:

- احلف لجناب البك المأمور يا عرفة.

- أقسم لك يا جناب المأمور حصل.

هبط المأمور من أعلى حصانه وصافح يد العمدة الممتدة منذ زمن، وصعد  
مع العمدة إلى المندرة تاركاً عساكره في الأسفل، قال العمدة:

- النظار يا عرفة، أسرع يا ولد، ثم اقترب من المأمور قائلاً:

- كنا قد أرسلنا هدية متواضعة إلى بيتكم كتهنئة بتوليكم المنصب الجديد

نرجو بها الرضا، وكنا سنحضر أيضاً للتهنئة لولا ظروف ارتفاع مياه النيل.

قال المأمور:

- وصلت هديتك يا عمدة، ولكن الست حرمتنا غاضبة للغاية.

- يا نهار أغبر يا ولاد، الست غاضبة منا؟ لم إذن؟ نحن لا نقدر على مثل هذا

يا بك.



المأمور: جميع البط الذي أرسلته يا عمدة إناث لا يوجد فيهم ذكر واحد، الست كانت مصرة أن ترد الهدية، إلا أنني أخبرتها بأن هذه سقطت من العمدة ولا بد أنه سيتدارك هذا الخطأ ويُصلحه، دافعت عنك كثيرا يا عمدة.

- ايبيه، ازاي الكلام دا، الخطأ مردود يا جناب البك.  
و تصنع العمدة الغضب رغم أنه يعلم أن البك المأمور اصطنع حكاية غضب الست طمعا في قفص بط آخر، ونادى على عرفة عاليا:  
يا ولد يا عرفة، يا طور الساقية أنت.

وحضر عرفة في الحال، قال العمدة:  
- سأعلقك اليوم في الفلكة أمام الدوار، ألم أوصيك بأن تكون هدية البك المأمور جميعها من الذكور.  
هم عرفة أن يدافع عن نفسه إلا أنه سكت لما غمز له العمدة بطرف عينه وقال:

- أنت لسه هتتكلم؟ اذهب حالا إلى الزريبة وأحضر قفصا كبيرا ضع به عشر ذكور بط، وإياك أن تخطيء وتأتي بأنثى واحدة، هيا انجر بسرعة، شوف الولد يبحلق في ازاي؟ انجر يا طور الساقية خفراء آخر الزمان.

قال المأمور: لمَ البلد خاوية من الفلاحين هكذا؟  
- الترع امتلأت إلى قممتها، وخاف الفلاحون أن يغمر الفيضان المزارع فيهلكها، فهرعوا إلى أراضيهم يجمعون (قيزان) الذرة  
- ولكنها ما زلت خضراء

- يجمعونها خضراء خير من أن يغمرها الفيضان فلا يستفيدون منها خضراء ولا يابسة، الخضراء يقدمونها علنا للبهائم، وما تيسر يستخدمونها لخبزهم.  
- ومن الممكن ألا يغمر الفيضان الزراعات طالما انتبهتم للجسور.  
- هم لا يقطفون القيزان كلها.

- عموماً فعلوا خيراً؛ فنظارة الري أخبرتنا باحتمال ارتفاع منسوب مياه النيل هذا العام أكثر من كل عام، وإذا ارتفع منسوب مياه النيل بالشكل الذي يهدد الجسور فسنتضرر لتنفيذ تعليمات الري بضرورة فتح الجسور ليخف ضغط المياه وحينها ستغرق جميع الزراعات بما فيها أرضك بل وتمتد إلى البيوت.

- أرضي لا أخوف عليها؛ فقد أحطناها بجسور سميكة تمنع نفاذ المياه إليها، ثم إننا من يتحكم في أماكن الفتحات التي ستتم في الجسور، كان الله في عون الفلاحين.

دخل عرفة بصينية نحاسية كبيرة مليئة بالفطائر وأطباق البيض الغارقة في سمن الجاموس وأطباق الجبن والقشدة والطماطم والخيار.  
أكل المأمور عدة لقيمات ثم أمر بإنزال الطعام إلى عساكره  
قال العمدة: لم تمر بنفسك يا جناب البك، أين شيخ الخط وناظر القسم.  
قال المأمور:

- هذا ما كنت سأحدثك عنه، كنا نمر جميعاً بكفر بدوي، وهناك انقطع الجسر، لذا نريد عدة رجال بمقاطفهم وفؤوسهم، يذهبوا مع أحد العساكر إلى كفر بدوي ليساعدوا أهلها، فقد غرقت البيوت والأراضي.  
نادى العمدة:

- ولد يا عرفة، نفذ كلام البك المأمور فوراً، وبلغ المشايخ أن يحضروا أيضاً، سنطوف ثانية على الجسور، لن دعم باقي الجسور الضعيفة.  
- أمرك يا عمدة

قدم الغفر بخمسة عشر رجلاً ربطوا أيديهم جميعاً بحبل واحد فأصبحوا صفاً، وربطوا الحبل في سرج حصان العسكري الذي انطلق يجرحهم متجهاً ناحية كفر بدوي.

قدم مشايخ البلد، الشيخ حربي الهنداوي شيخ مشايخ عربان أو لاد الوافي الذين استوطنوا الجزء الشرقي من القرية، والشيخ عثمان بدر الرحيمي شيخ البلد، سلما على المأمور والعمدة وهموا بالجلوس إلا أن المأمور وقف قائلاً:

- لا يوجد وقت لدي، فلا بد الآن أن أمر معكم سريعاً بباقي الجسور، ثم أستكمل أنا والعساكر إلى باقي البلدان.

انطلق الجميع المأمور والعمدة والمشايخ في المقدمة يليهم العساكر والخفر، أثناء مرورهم فإذا بجسر ضعيف لم يتحمل ضغط الفيضان فانهار واندفع الماء للخارج

انتشر الغفر إلى البيوت والحقول يجمعون الناس، انطلق الرجال والنساء والأطفال مهرولين إلى الجسر المنهار حاملين فؤوسهم ومقاطفهم. اختلطت أصوات الناس

يا وقعة سودة يا ولاد، البلد هتغرق، البيوت هتغرق، المحصول هيفرق، البهايم هتغرق

تكاتف الجميع جنباً إلى جنب وغاصوا في الوحل، الرجال يملأون للنساء التراب في المقاطف ليصبوها في القطع، والبعض الآخر يملأ لنفسه ويصب التراب، البعض يحضر قطع الحجر، والآخرون يحضرون حزم الحطب وأعواد الذرة حتى اكتمل القطع وتوقف تسرب المياه، وما إن جلس الجميع يلتقطون أنفاسهم حتى جاء عرفة يخبرهم بأن السد الذي عند مدخل القرية قطع أيضاً

نادى العمدة:

- هم يا واد أنت وهو على هناك، بسرعة يا ولاد.

هم الجميع ناحية القطع الجديد، بينما انطلق المأمور ورجاله حاملين قفص البط متجهين إلى القرية التي تليها.



---

همس العمدة قائلاً وهو ينظر للمأمور الذي أصبح على مد البصر:  
- قدومك كان شؤم على البلد، داهية لا ترجعك، منشغل أنت فقط بذكور  
وإناث البط وحكاية غضب الست التي ستجر بها خروفاً الآن من كفر الديبة.



( ١٢ )

دخل الشيخ العدوي باب القاعة التي يقف السلطان في صدرها على منصة مرتفعة قليلاً عن الأرض، يقف إسماعيل خلف السلطان بمسافة وعينه تراقب حركة الشيخ، انحنى الشيخ عند الباب كزملائه ثم اسرع بعد ذلك نحو السلطان بمشيته الاعتيادية ولم يعاود الانحناء ولا التسليم، فخفق قلب اسماعيل، استمر الشيخ في التقدم بقدم ثابتة حتى وصل إلى المنصة وصعدھا، نظر إليه اسماعيل بعين ثابتة، قال الشيخ:

- السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله.

وثب قلب اسماعيل، ولولا مهابة السلطان لأهانته وطرده

ابتسم السلطان ورد على الشيخ تحيته:

قال الشيخ:

(عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله ألا تستعملني قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)

فَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ الْحُكَّامَ خُلَفَاءَ الْأَنْبِيَاءِ فِي النَّاسِ وَالْمَسْئُولِيَّةُ كَبِيرَةٌ،  
وَالثَّوَابُ عِنْدَ اللَّهِ سَيَكُونُ بِمَقْدَارِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَحَسَنَ تَنْفِيزِهِ فِيهَا، كَمَا أَنَّ  
عِقَابَهُ عِنْدَ اللَّهِ سَيَكُونُ عَلَى قَدْرِ إِهْمَالِهِ.

امْتَقِعْ لَوْنِ إِسْمَاعِيلَ، وَأَخِذْ يَسْتَعِدُّ لْغَضَبِ السُّلْطَانِ.  
أَكْمَلُ الشَّيْخِ الْعَدَوِيِّ:

يَجِبُ عَلَى الْحَاكِمِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَأَنْ يَصُونَهُ وَيُرْعَاهُ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ  
فَإِنْ اعْتَدَى أَحَدٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى أَدَبَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ وَيُزَجِرُهُ حَتَّى يَرْتَدِعَ  
وَيُنْزَجِرَ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ النُّفُوسِ الْمَرِيضَةِ، كَمَا يَجِبُ عَلَى الْحَاكِمِ  
أَنْ يَسْتَمَعَ إِلَى رَعِيَّتِهِ لِيَتَعَرَفَ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَيُبْحَثَ لِمَشَاكِلِهِمْ عَنْ حُلُولِ  
وَلَا يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ احْتِجَابًا يَحُولُ دُونَ وَصُولِ أَخْبَارِهِمْ إِلَيْهِ تَرْفَعًا عَلَيْهِمْ  
وَقَدْ يَنْقَلِبُ لَهُ خَاصَّتُهُ خِلَافَ الْوَاقِعِ وَأَنَّ النَّاسَ يَعْشَوْنَ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ،  
وَقَدْ يَفْسُدُونَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرِّعْيَةِ مَدَاهِنَةً لَهُ وَإِيهَا مَا لَهُ أَنَّهُمْ حَرِيصُونَ عَلَيْهِ  
يَسْعَوْنَ فِي تَأْمِينِهِ وَالْمَحَافِظَةِ عَلَى مَلِكِهِ لِيَحْقُقُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَنَافِعًا مَادِيَّةً  
وَلِيَتَسَلَّقُوا عَلَى أَكْتِافِ الشَّعْبِ لِيَصِلُوا إِلَى مَا يَرِيدُونَ خَاصَّةً إِذَا أَوْهَمُوا  
الْحَاكِمَ أَنَّهُمُ الْحَامُونَ لِمَلِكِهِ مِنَ الزُّوَالِ فَإِنَّهُمْ سَيَأْخُذُونَ مَا يَشَاءُونَ وَيَفْعَلُونَ  
مَا يَرِيدُونَ بِالشَّعْبِ.

ظَلَّ إِسْمَاعِيلُ يَرِاقِبُ وَجْهَ السُّلْطَانِ فَلَمْ يَجِدْ عِلَامَاتَ غَضَبٍ مُطْلَقًا بَلْ وَجَدَ  
مَلَاحِجَ السُّلْطَانِ مَرْتَاخًا تَمَامًا لِكَلَامِ الشَّيْخِ  
فَرَّغَ الشَّيْخُ مِنْ نَصِيحَتِهِ الَّتِي خَتَمَهَا بِالسَّلَامِ ثُمَّ انْحَنَى أَمَامَ السُّلْطَانِ وَأَقْفَلَ  
خَارِجًا بُوْجْهَهُ لَا يَظْهَرُ كَسَابِقِيهِ.

وَلَمَّا خَرَجَ الشَّيْخُ، سَأَلَ السُّلْطَانُ مِنَ الشَّيْخِ  
أَجَابَ إِسْمَاعِيلُ:

- هَذَا شَيْخٌ مِنْ أَفْضَلِ الْعُلَمَاءِ وَلَكِنَّهُ مَجْذُوبٌ وَأَسْتَمِيحُ جَلَالَتِكُمْ عَفْوًا عَنْ  
سَقَطَتِهِ



قال السلطان:

كلا بل إنني لم أنشرح لمقابلة أحد اشراحي إلى مقابلته رغم أنني لم أفهم من كلامه شيئاً فأنا لا أفهم العربية!! اصرفوا له خاعة (ثياب فاخر) وألف جنية.  
اليوم التالي هو يوم تشييع المحمل المصري إلى البلاد الحجازية، فرأس السلطان بنفسه الحفلة السنوية المعتادة، وفي يوم الاثنين قصد السلطان مصانع القطن والحريز ببولاق ثم نزل إلى القناطر وسعد برؤية مشهدها البديع ثم عاد إلى قصر النيل، وفي أربعة وعشرين من شوال زار الأهرامات التي أثارت إعجابه، في ستة وعشرين من شوال سافر السلطان إلى الإسكندرية وقام الخديوي اسماعيل بتوديعه هناك حيث قدم السلطان شكره له على ضيافته له ولأهل بيته، وكان من أثر هذه الزيارة اطلاق اسم عبدالعزيز على أحد شوارع القاهرة.



( ١٣ )

في كل صباح يجلس في مندرته التي تكشف الشارع الكبير، وكان يروق له أن يناغش البنات اللاتي يسرن في الشارع حاملين الجرار الفخارية وهن في طريقهن إلى النهر ليمالأنها، كن يحدثن عمدًا جلبة مرحة أمام الدوار عبارة عن صياح وضحكات، كان يلتفت إليهن ينهرهن عن تلك الجلبة باللين حينًا ومتظاهراً بالشدة حينًا آخر، وحينما كان يشتد عليهن كان يسر برد إحداهن عليه بأنه لا دخل له بهن فهن في الطريق العام لسن بدواره، كانت الابتسامة لا تفارق وجهه مما يجعلهن لا يحتددن في الرد، وكان يأمر عرفه أحيانًا بأن يوزع عليهن الحلوى، كان يأنس بمرورهن والاحسان إليهن، في هذا اليوم احتد العمدة في نهرهن عن تلك الجلبة التي يحدثونها فردت أكبرهن سنًا على العمدة واحتدت في الرد فلم يجارها العمدة، ولما انصرفن البنات بعيدًا أخذن ينهرنها ويلومونها على تلك الحدة التي تسببت في حرمانهن من منح العمدة.

سأل العمدة عرفة عن هذه البنت فأجاب بأنها ابنة الشيخ محفوظ.  
أجاب العمدة: تزوجها لك يا ولدي عرفة، لكن من الواضح أنها تكبرك سنًا.

قال عرفة: لا مانع لدي، ولكن الشيخ محفوظ لن يوافق، فليس على لسانه سوى أنه الوحيد الذي في الناحية الذي جاور بالأزهر، وإذا تقدم أي أحد إليها رفضه، فهو لا يريد لها سوى مجاورًا بالأزهر أو أحد الأعيان، وظل هكذا حتى كبرت البنت.

قال عربي - أحد الأجرية لدى العمدة - متملقًا:

- أنت يا عرفة من المجاورين، ألم تجاور دوار العمدة منذ ولدت، فمن يجاور دوار العمدة كأنه جاور بالأزهر تمامًا.

ضحك العمدة وقال:

- ثم إنك من الأعيان يا عرفة، أليس لديك فدانًا كتبه العمدة الكبير للزبير أبيك، وورثته أنت.

- كلام يا عمدة، كله كلام، الفدان هذا تحت يدك منذ أيام العمدة الكبير.

سكت العمدة ولم يعقب ثم التفت إلى عربي الجالس أمامه قائلًا:

- انصت إليّ يا عربي جيدًا، في هذا العام لا دخل لك بأرض الست، ستزرعها هي بمعرفتها، ما أريده الآن العشر فدادين يا عربي، نريد أن نزرعهم قمحًا، كم تحتاج وقت لحرثهم؟

- ما زال الوقت مبكرًا يا عمدة.

- إلى أن تنتهي من حرثهم يحن وقته.

قال عربي: ثلاثة أيام حرث للفدان الواحد يا عمدة.

اعترض العمدة وعلا صوته وأشاح بيده:

- لمَ ثلاثة أيام؟ هما يومان فقط، أولاد عبد الدايم حفروا لنا بئرًا بعمق ستة

أمتار ونصبنا فوقه ساقية، كل هذا في أربعة أيام فقط، أما أنت والمحراث

مُعلق فيه طورين، والطورين من زريبة الدوار ولم تأت بهم من بيتك وتريد

للفدان ثلاثة أيام؟ أتريد أن تسجل يوميات فقط، هل أخبرك أحد زورًا بأن

مالنا حرام.



- يا عمدة لو كان لدى طورين ماكنت عملت بالأجرة عند أحد.  
عاجله العمدة وكأنه أهين:

- حمدا لله الذي أفقركم وأغنانا يا سيدي، وإلا ما استطعنا أن نتحدث إليكم  
أو نجالسكم، اسمع يا ولد هما يومان فقط لحرث الفدان كما هو متعارف  
عليه، بعدها سيصرف لك عرفة من مخازن الدوار نص أردب قمح لكل  
فدان كبذور تنثرها فيه، ثم تحرث مرة أخرى سريعًا لتغطية البذور، ولا تنسَ  
أن تسجل يوميات عملك في دفتر عرفة، لتأخذ حقلك بعد الحصاد، ربعة عن  
كل يوم (٢٤ / ١ من الأردب)  
- اليومية ربعة ونص يا عمدة.

التفت العمدة إلى عرفة بعدما غمز له بطرف عينه قائلاً:  
- ألا صحيح يا ولديا عرفة، هو عربي مكتوب اسمه في كشوفات العونة التي  
ستخرج لحفر ترعة الإبراهيمية  
قال عرفة:

- مكتوب يا عمدة أول اسم، ومكتوب اسمه أيضا في كشوفات حفر القناة.  
قال عربي:

- سخرة تاني يا عمدة، وفي الاتنين مع بعض، ما هذا الكلام؟  
قال العمدة

- لا تقل سخرة يا عربي، اسمها عونة وهذا صالح عام.  
- ليس صالح عام يا عمدة بل صالح الأعيان والمشايخ فترعة الإبراهيمية  
تروي أراضيهم، والقناة مشروع الأجانب.  
رمقه العمدة بنظرة حادة وقال:

- التربة ليست للأعيان ولا العمدة يا عربي، هم يحفرون التربة من أجل  
أراضي الخديوي فاذا أردت أن تعترض فعليك بالمديرية، أما القناة فستمر

منها السفن، لا أدري من أين ستأتي تلك السفن وإلى أين ستذهب، ولكن ما أعلمه أن عمدتكم ليس لديه سفناً ستمر في تلك القناة.  
استدرك عربي خطأه مستشعراً بأنه قد أغلظ القول فقال:  
- عموماً يا عمدة أنا أرى أن اليومية ربعة ونص كثير، يكفي ربعة واحدة فقط،  
الأراضي مصاريفها كثيرة.  
قال العمدة

- أتظن يا عربي أنني سأستفيد من محصول القمح هذا؟ حاشا لله، فهذا  
المحصول لا يكفي رجال الحكومة خبزاً حاف، فكل رجل من رجال  
الحكومة بدءاً من شيخ الخط إلى مدير المديرية، إذا خطت قدمه هاهنا لا بد  
أن يأكل ويحمل معه الخبز والفتائر واللحم.

- اخبز لهم بدقيق ذرة أرخص.

انفعل جابر وعلا صوته:

- تحشم يا ولد وتكلم مع عمدتك بأدب، هذا بيت عمدة بن عمدة.

التفت العمدة إلى عرفة قائلاً:

- لا تنس يا عرفة أن تحذف اسم عربي من كشوفات العونة فعربي رجلنا،  
وأنت يا عربي قم لتبدأ في ما اتفقنا عليه.

انصرف عربي بعدما شكر ودعا رافعاً يده بمحاذاة رأسه ويخفضهما.

التفت العمدة إلى عرفة يلومه قائلاً:

- أخطأت يا عرفة في حديثك أمام عربي، فأنا لم أمنعك أرضك يا ولد،

فقدانك له حدود معلومة إذا أردت أن تستلمه فاذهب فلن يمنعك أحد، ثم

أننا لم نمنعك شيئاً تطلبه، فمفاتيح مخازن الدوار بيدك تتصرف كما يروق

لك ولم أسألك عن داخل أو خارج، رغم أنني لا أعرف حتى الآن السبب

في أن كتب العمدة الكبير للزبير أبيك فدائناً وبني له بيتاً ملاصقاً للدوار.

قال عرفته: كلامك صحيح يا عمدة كان يتوجب عليّ ألا أتكلم في مثل هذا أمامه.

قال جابر: كان الزبير أحب عبيد العمدة له، ثم أنه لم يستبق سواه حين باع كل العبيد، بل وأعتقه قبل موته، وزوجه صابحة التي أنجب منها عرفته.  
قال العمدة: صحيح وإن كنت أعرف أبي جيداً، مستحيل أن يفعل هذا إلا لسر كبير ستكشف عنه الأيام.

أشار جابر لعرفة بالانصراف بعيداً ثم مال إلى العمدة قائلاً:  
- هل فاتحت الجازية في موضوع زواجك.

- فاتحتها، قامت الدنيا ولم تقعد، بل وغادرت الدوار.

قال جابر:

- هذا ما قلته لك، فرصة لن يضيعها عثمان، طوال عمره يرى أن الرحيمة هم أولى بالعمودية، فهم ذوي المال والأصل، ونحن دخلاء عليهم في بلدهم، وما زال عثمان يردد الكلام في مجالسه وأنت تعرف هذا، إن كان بدر الرحيمي ارتضى بمشيخة البلد فهذا لما كان لأبوك من شأن عند رجال الحكومة نظراً لأنه وطنّ عربان أولاد الوافي جبراً تنفيذاً لسياسة الباشا الكبير، فبدر الرحيمي كان يعلم أنه لن يستطيع حينها الحصول على أكثر من المشيخة، فما فعله أبوك مع العربان إن كان وطد قدمه وقدمك في العمودية حينها فالأمر قد مرّ عليه عشرات السنين ورجال الحكومة الذين كانوا يوطدون كرسيكم ماتوا أو تركو مناصبهم، عثمان يرى أنك لا تستحق أن تكون شيخ بلد فضلاً من أن تكون عمدة، والوحيد الذي كان يصده هي الجازية.

- لقد مرّ على مجيئ جدك إلى تلك البلد أكثر من خمسين عاماً يا جابر، فإلى متى سنظل في نظر أهلها دخلاء.



— ♦ ♦ ♦ ♦ —  
- ليس لنا عائلة ها هنا يا عبد الرحيم، جدك ما أنجب سوى أبي وأبوك، وأبي مات بالمحروسة وجئت ها هنا بناء على رغبة الشيخ إبراهيم، وأبوك ما أنجب غيرك مع البنات.

- إذن على كلامك من المفترض أن أتزوج وأتي بأولاد كثير.  
- لم يمنعك أحد من الزواج حتى الجازية نفسها، أنت من تصر على العجرية.

- إصراري على العجرية ليس رغبة في الولد وليس حباً فيها، بل عندا في الجازية، أزلتني طوال الثلاثون عامًا الماضية، سليطة اللسان، متعالية ومتكبرة علي، صدها لعثمان أكثر من مرة في محاولاته لاستعادة الكرسي ليس حباً في، بل رغبة منها أن يكون الكرسي في بيتها، وتظل هي زوج العسدة، أريد أن أكسر أنفها وأزلها.

- إذن الأمر حظ نفس، وانتقاماً وليس سعياً لمصلحتك ومصلحتنا معك، إذن فلتحمل تبعات قرارك وحدك.  
قالها وانصرف





يرى حسنين أن هناك ثلاثة أسس علمية لا بد من الارتكاز عليها حتى يتسنى لك ممارسة المهنة

فالركن الأول هو إجادة الصنعة وهذا الركن لا يمثل الدرجة الأولى من تلك الأسس، فكل ما عليك في البداية فقط هو أن تمرر مقصك في رأس زبونك، توغل في رأسه كما يتوغل الجيش في أرض العدو، أنت الآن لا تقل أهمية عن أعظم جراح، وما الفرق بين أي عضو من أعضاء الإنسان وشعره! امسح حبات عرقك المتناثرة على جبهتك وأكمل معركتك مع ضحيتك! حتماً سينتج جزر وممرات في رأس زبونك، لا تقلق عاود الكرة مرة أخرى، فإن عجزت عن إذابة تلك الجزر فعليك أن تخبر زبونك بأن ما توصلت إليه في رأسه ليس شوارعا كما يرى هو، بل هذا أحدث صيحة في علم الحلاقة الحديث ببلاد الفرنجة، ولا تقلق إذا ما جز موسك جلدة فكل ما عليك أن تخبره بأن تلك الجروح هي أثر حجامة مجانية صنعتها له، ولا تنس أن تشدد على المجانية فهي كلمة مثيرة لشهية الزبائن، ومع الوقت إما أن تحترف وتستدرك تلك الأخطاء أو يتعود زبونك على ذلك طالما لا يوجد منافس.

الركن الثاني: العدة، وهذا لم يقصر فيه، فضبط العمل أهم من العمل ذاته، قام بتجهز غرفة بيته صالوناً بعدما نقب لها باباً على الشارع واستأجر خطاطاً كي يكتب له لوحة اعلانية (صالون حسنين للحلاقة)، تعجب الخطاط قائلاً:

- لم التعريف بحانوتك وأنت الحلاق الوحيد بقريتك، بل والقري المحيطة، وأغلب الزبائن لا يعرفون القراءة فكان الرد:

- أريد أن أشعر الزبون بأنه يحلق في صالون أفخم من صالونات البندر. كان قد جر إرثه والمتمثل في جاموسة عشر إلى السوق واشترى بثمانها عدة متهالكة من خواجه يوناني كان يصفى أعماله للعودة إلى بلده، على أثر تلك الواقعة لازمت أمه الفراش عدة أسابيع، وجهوها إلى القبلة عدة مرات ولكنها لم تمت!

الركن الثالث: حتى تكون حلاقاً ماهراً لا بد أن تكون ثرثاراً، فالثرثرة خصلة ملازمة لأغلب الحلاقين إلا ما رحم ربي، فهذه الثرثرة لا تخرج عبثاً هكذا، بل هي وسيلة من وسائل الترويج لصالونه حتى يهون بها الوقت على جموع المنتظرين وليشعرهم بأنه يبذل جهداً كبيراً في الحلاقة. يقول عرفة محدثاً العمدة عن صالون حسنين:

- فكل ما يدور في البيوت لا بد أن تجده مادة للنقاش في صالونه، وسرك الذي ظلت عمرك تحبسه بين خلجات صدرك قد يكون حديث اليوم هناك وانت لا تدري!!!!

## (١٥)

جلس عبد الرحيم في مندرته وسط جمع من الفلاحين يتفاوض معهم على شراء محصول القمح القادم الذي ستم زراعته قال العمدة: ستون قرشاً للأردب.

اعترض الفلاحون على المبلغ، فقال العمدة:

- لما الاعتراض يا سادة وأنتم تقبضون مقدماً، حتى قبل أن تزرعوا.

قال أحد الفلاحين

- تقدر لك يا عمدة كونك تدفع لنا مقدماً فلولا اقتراب قدوم الصراف لتحصيل المال الميري ما كنا قدمنا على ذلك، فستون قرش للأردب قليل، وخصوصاً أن الأردب يباع في البندر بأكثر من مائة قرشاً.

قال العمدة:

- يباع بأكثر من مائة قرش حينها فالبكاء على رأس الميت وحينها يكون المحصول موجوداً، أما الآن فأنا أعطيكُم المال مقدماً وأستلم المحصول بعد عدة أشهر، وحينها أورد المحصول للشون وأتقاضى منهم المال مؤخرًا بعدما يبيعون.



قال فلاح آخر: نحن نطمع في كرمك يا عمدة، فأنت أكبر من أن تستغل حاجتنا.

قال العمدة:

- لا تدبحوني يا أخواني فأنا أخوكم، آخر كلام لدي خمسة وستون قرشا للأردب و...

(تسمى الأرض الخراجية بهذا الاسم نسبة لما يدفع لها من خراج (ضرائب) نظير الانتفاع بها،

في عصر محمد علي تعتبر الأقطان الخراجية ملكا صريحا للدولة وليس لواضعي اليد عليها سوى حق المنفعة فقط حال حياته دون توريث هذا الحق - مع استمرار سحب الأرض من المنتفع وتوزيعها لمنتفع آخر، أو قد تفرضها الدولة علي أشخاص نظير خراج معلوم.

وفي عصر محمد سعيد باشا قام بتمليك تلك الأراضي الخراجية التي فرضتها الدولة على الأفراد نظير خراج معلوم شريطة أن يمر أكثر من خمس سنوات التزم فيها بدفع الضرائب)

لم يمه العمدة كلامه حتى علا صوت عرفة:

- المأمور يا جناب العمدة

لما سمع العمدة اسم المأمور انتفض قائما فقام الفلاحون تباعا

قال العمدة:

- المأمور؟ استر يا رب، لسنا في موسم فيضان، واليوم الجمعة إجازة، لا بد وأن هناك مصيبة كبرى.

أمر العمدة بفض المجلس على أن يتم عقده لاحقا، وهبط العمدة درجات المنذرة مرحبا يستقبل المأمور بينما تسرب الفلاحون في صمت. لاحظ العمدة أن المأمور جاء منفردا دون التشريفة التي يأتي بها دوما فزاد قلقه.



صعدا معا إلى المنذرة بعدما تلقف عرفة الحصان الحكومي وصار به ناحية  
الزربية.

قال العمدة والارتباك يظهر عليه: يا مرحبا يا بك، البلد كلها نورت.  
- مرحبا بك يا عمدة، لا تنزعج كوني جئتك في يوم الجمعة، فمجيئي لك  
اليوم زيارة ودية لا علاقة لها بالعمل.

ظن المأمور أنه بكلامه هذا هدى من روع العمدة، الا أن العمدة ازداد حيرة  
وقلقًا، فما بينهما صداقة حتى يأتي المأمور في زيارة ودية، فأبي مأمور لا يأتي  
إلا وخلفه المصائب، هكذا تعود العمدة، هل يمكن أن يكون مجيئه طمعا  
في أكلة بط وأوز مع فطير مثلت حينها سيكون الأمر سهلاً، أو من الممكن  
أن يكون قد تفحص قفص ذكور البط الأخير فوجده إناثًا!! وقعتك سودة  
اليوم معايا يا عرفة، أم طمعا في خروف حي يذبحه عتيقة لمولود، هكذا تعود  
من رجال الحكومة فهم دائما يحققون أمانيتهم على عتبة الدوار، قرر العمدة  
أن يوقف سيلاً من الأفكار يهاجم رأسه فنادى العمدة على عرفة:  
- الفطار يا عرفة

اعترض المأمور ملوحاً بيده:

- لا لا يا عمدة

سكت المأمور قليلاً ثم قال:

- لا تؤاخذني يا عمدة أفسدت عليك اجتماعك بالفلاحين.

- لا اجتماع ولا شيء يا بك، إنهم مجتمعون ليقبضوا عرابين مقدمة

لمحصول قمح العام القادم، فهم في حاجه لسداد الضرائب الأميرية، حيث

أخبرني ناظر القسم أنه قادم هذا الأسبوع ومعه الصراف لجمع الضرائب.

- وماذا تفعل بكل هذا الكم من القمح وهل تشتريه من الآن؟ فهم لم

يحصدوا المحصول الحالي.

- أورده ناشون، فالمحصول الحالي مدفوع لهم ثمنه من قبل.

- ماذا لو أخرجت التجار من الدائرة ليكون تعاملك مع المستهلك مباشرة،  
أيكون المكسب أكبر؟

- نعم يكون المكسب أكبر ولكن كيف؟

- يمكنك استئجار شونة، وتضع فيها كل أنواع الحبوب: قمح شعير ذرة  
وسمس.

- فكرة جيدة، ولكن مشروع مثل ذلك يحتاج متابعة والمحروسة بعيدة  
عني.

- كان هذا قديمًا أيام أبك العمدة الكبير كنتم تسافرون عبر النهر، أما الآن  
ففي القطار عدة ساعات وتكون في قلب المحروسة، ومع ذلك ليس شرطًا  
أن تكون الشونة في مصر المحروسة، يمكنك إنشائها في البندر أو المديرية.  
قال العمدة:

- عرضت علي وكالة كبيرة ثمانية حواصل يمكنها استيعاب ناتج الزمام كله،  
ولكن الأمر أكبر مني فصرفت نظري.

كان المأمور يجس نبض العمدة بهذا المقترح ليعلم مدى تطلعات العمدة  
ومدى طموحاته تمهيدًا للأمر الذي جاء من أجله، فأحبط بعد سماع العبارة  
الأخيرة، فقال بعدما سقطت عيناه على الجرن.

- أراك حصدت القمح.

- على وشك الانتهاء من درسه.

- وماذا ستزرع إذن.

- أرز إن شاء الله.

- لا لا لا بد أن تزرع قطنًا.

- نوبات الري اللازمة لإنباته أكثر تكلفة والمياه أكثر انخفاضًا في هذا الوقت.

- القطن هذا العام سيتضاعف ثمنه من ١٢ ريال للقنطار إلى ثلاثين وأربعين  
ريالاً؛ نظرًا لقيام الحرب الأهلية بأمريكا وتوقف زراعة القطن هناك.

- صحيح الكلام هذا يا بك؟

- صحيح يا عمدة، وستضاعف أرباحك مما قد يمكنك من شراء آلة ري بخارية تعمل بالخطب والفحم تغنيك عن الري بالسواقي والشادوف.
- حتى لو تضاعف الربح كما تقول، أشتري آلة ري بخارية لعشرة فدادين؟
- هذا ما جئتك من أجله.

تلقت المأمور وأمر العمدة أن يصرف خفزه بعيدًا، ثم قال:

- اسمع يا عمدة، جئتك بفرصة لا تأتي سوى مرة واحدة وعليك اقتناصها، كما اقتنصت أنا الفرصة يوم أن جاءتني وإلا ظللت حتى الآن موظفًا في مصلحة البريد، والآن تأتي الفرصة الثانية لي ولك ولن أتركها، فمدير المديرية تركي ولا يقبل وجودي، لذا فأنا لا أضمن بقائي مأمورًا طويلًا وعلني تأمين نفسي، كنت أمني نفسي بترقية حتى قيل لي صراحة أن ما وصلت إليه أقصى حد يمكن أن يصل إليه مصري وما بعد ذلك من مناصب فهو من نصيب الأتراك والشراكسة، لي أخ في الجيش أقصى منصب وصل له يوزباشي وما بعد ذلك من ترقيات ومنصب فهي للأتراك والشراكسة أيضًا، ناهيك عن مظاهر الاحتقار وسوء المعاملة من هؤلاء القيادات، فالمناصب العليا من نصيبهم وكذلك الأبعديات والأوسيات التي يمنحها أفندينا، ولذا قررت الانتباه قبل فوات الأوان، أنا قصدتك أنت بالأخص في هذا الأمر لأنك أقل عمد الخط مشاكلاً؛ فحتى الآن لم أتلق أي شكوى من الفلاحين تجاهك، حتى الشكاوى التي يرسلها مشايخ بلدتك تحت أسماء مستعارة فأنا أعلم جيدًا أنها كيدية، لاحظت بغضهم لوجودك يوم انقطاع السد، يومياً أتلقى الكثير من الشكاوى من القرى التي تجاورك، محتواها جور العمدة والمشايخ على حقوق الفلاحين، وعن جورهم حدث ولا حرج اغتصاب دواب الفلاحين، تستر على مجرمين، رشوة وتزوير وتلاعب في أسماء المطلوبين للعدونة والتجنيد وتشغيل الفلاحين في أعمالهم الخاصة



دون مقابل، والأمر الذي جئتك من أجله يستوجب أن يتم مع شخص ليس لديه مشاكل حتى يمر بسلام.

ازدادت دهشة العمدة بالكلام وزاد ارتباكها من طول الندية.  
سكت المأمور قليلاً ليستجلب كامل تركيز العمدة.

بينما فرغ صبر العمدة الذي حاول أن يكون هادئاً فقال:

- اتفضل يا بك أكمل، أنا منصت إليك.

قال المأمور:

- تريد أن يكون تحت يدك أكثر من ثلاثة مائة فدان تكون ملكك ولورثتك

من بعدك؟

ازدرد العمدة ريقه بالكاد ثم قال:

- ومن يكره ذلك يا بك.

أخرج المأمور من جيبه صحيفة قديمة بعض الشيء مكتوب عليها جريدة

الوقائع المصرية.

فتح المأمور أحد صفحاتها وناولها العمدة قائلاً:

- اقرأ من هنا يا عمدة.

تناولها العمدة وقربها من عينه ثم قال:

اللائحة السعيدية

البند الرابع:

يلزم كل من كانت تحت يده أطيان من الأراضي الأميرية الخراجية ذكرًا كان

أو أنثى ومكلفة عليه ووضع يده عليها خمس سنوات فأكثر وقائم بما عليها

من الخراج، فلا تتزع من يده ولا تسمع فيها دعوى ولا قول من أحد بوجه

من الوجوه ولا طريقة من الطرق إذا كانت الأرض خراجية ميرية تطبيقاً على

الأصول الشرعية.

- كفى هنا يا عمدة



و سحب المأمور النورقة و ضبقها و و وضعها في جيبه ثم قال: ماذا فهت يا عمدة؟

قلب العمدة يديه قائلاً: لا شيء

قال المأمور:

- انصت إلي جيداً فيما سأحكى لك، في عهد محمد سعيد كان كثير من الفلاحين يُجبرون على التنازل عن أراضيهم لأفراد الأسرة الحاكمة الذين يرغبون في ضم تلك الأراضي إلى مزارعهم وكانوا يعرضونهم بأرض أقل خصوبة في مناطق أخرى وكان الجدل جزاء من يرفض، كانت هناك ثلاثة مائة فدانا من الأطيان المجاورة لأبعادية عبد الحلیم باشا نجل محمد علي يملكها الفلاحون، وأراد حلیم أن يشتري تلك الأطيان من أصحابها ليلحقها بأبعاديته فرفض هؤلاء بيعها للباشا، عندئذ استدعاهم حلیم للوقوف على أسباب الرفض إلا أنهم أصرروا على موقفهم فأمر بجلدهم، فوافق البعض ورفض البعض، مما دفع مدير المديرية إلى رفع أمرهم إلى الوالي ليأمر بما يتبع بشأنهم فأجبروا على الخروج منها وتعويضهم بغيرها في مديريات أخرى، وبالفعل ترك الفلاحون الأرض وتفرقوا على المديريات التي تم تعويضهم فيها بأرض أخرى، منذ تولى اسماعيل الحكم أخذ يوسع مساحة ممتلكاته ورأى من عمه حلیم وأخيه مصطفى أنهما لن يتركانه يهناً بالكرسي طمعاً فيه، فأجبرهما على أن يبيعا دائرتيهما اللتين بلغت مساحتهما حوالي خمسة وسبعين ألف فدانا بجميع محتوياتهما من مبانٍ ومضخات للري ومصانع للسكر، ليقطع الصلات التي تربطهما بمصر، ويتخلص من منافستهما السياسية له، وفي وسط هذا الصراع الذي دار بين حلیم باشا والفلاحون وبين حلیم باشا وأفندينا، تركت تلك الأرض التي كان عليها نزاع بين الفلاحين وحلیم باشا بوراً من غير زراعة ولم تضم إلا أراضي حلیم باشا، مؤخرًا نمت إلى سمعي أن المساحة قد التفتت لتلك الأرض ويصدد

مسحها وضمها إلى أراضي الخديوي بما أنها أرض بور وفي زمام دائرته،  
الأرض تبعد عن هنا ما يقرب من خمسين ميلاً وتطل على النهر مباشرة،  
وبناءً على كلامي هذا سيأتي رجال المساحة لمسح تلك الأرض وعمل  
الإجراءات المتبعة، في الفترة القادمة أستطيع أن أشغل رجال المساحة عنها  
حتى تتمكن من وضع يدك عليها، ووضع اليد لا يكون بالرجال ولا السلاح  
وإلا اعتبروك مغتصباً، وضع اليد في نظر الحكومة يكون بالزرع والقلع، ما  
عليك الآن إلا أن تعجل بوضع يدك عليها وما يترتب على وضع اليد من  
حفر آبار ونصب سواقي وزراعة أشجار ومحاصيل، ومن ناحيتي سأثبت في  
دفاتري بتواريخ قديمة بأنك وضعت يدك على تلك الأرض منذ خمس  
سنوات وسنحضر لك ما يثبت من الروزنامة بأنك سددت المال الميري  
بتواريخ قديمة، وطبعاً سيكون الدفع حقيقي ولكن بتواريخ قديمة، بعدها  
يتم رفع دعوى من طرفنا بأنك سطوت على الأرض ونقيم الحجج، ونجعل  
حجتك أقوى مما يجعل القاضي يحكم لك بناءً على البند الرابع من اللائحة  
السعيدية

وماذا عليك يا جناب البك من هذا كله.

- سأمكنك من تلك الأرض، نظير العشرة فدادين الذين هنا في القرية.  
انخلع قلب العمدة وقد دارت الوسوس دوران الرحي وساد النوجوم  
قسامته، أجن هذا المأمور، يريد أن يعطيني أرض بور لم تزرع منذ سنوات،  
ستستفد سنوات من الجهد وكثير من المال حتى تخضر، وإذا اخضرت  
الأرض فمن يضمن لي ألا تسلبها الحكومة كما سلب منه مسموح المشايخ  
من قبل حينما طمع فيه مدير المديرية ليضمه إلى مزرعته وتظاهر عبد الرحيم  
حينها بأنه لا رغبة له في هذا المسموح حتى لا يفقد هيئته، واضطر أن يقبل  
العوض براتب شهري رمزي يتقاضاه من الحكومة لا يكفي رجال الإدارة  
خبز شعير، ماذا لو سُحبت منه تلك الأرض أيضاً بعدما يضحى بالعشرة



فدادين، وكما سحبت من قبل أراضي الالتزام من جده بعد أن كان ملتزم  
الناحية وفي دوارهم كان يتم تعيين عمد ومشايخ القرى، والآن يريد المأمور  
أن يسلب منه العشرة فدادين بلعبة ما؟

لم يفق عبد الرحيم من غفوته سوى على صوت المأمور:

- يا عمدة، يا عمدة

- معك يا بك

- أعرف أن رأسك تدور، والأمر يستوجب تفكير ولكن لا وقت لدى، معك  
يوماً فقط تفكر، وكى أسهل عليك لن أضع يدي على العشرة فدادين إلا  
بعد أن يتم تطبيق البند الرابع عليك ويصدر الحكم لك.

ومسموح المشايخ هي أراضٍ معفية من الضرائب كانت تعطى للعمد نظير  
القيام بأعباء العمودية وضيافة رجال الإدارة وتستردها الحكومة بموت  
العمدة أو إقالته)

نهض المأمور واقفاً وقال:

- علم جيداً يا عمدة أن هذه فرصتك الأخيرة لوجودك، فعثمان وحربي لن  
يتركا لك الكرسي ولن يكفا عن تدبير المكائد، فهذه الأرض ستكون  
مملكته التي لا ينازعك أحد كرسيها، ستكون أنت الأمر الناهي فيها،  
وأعدك أن أسهل وصولك كعضو مجلس شورى النواب الذي يعمل  
الخدوي على إنشائه.

لم يعقب العمدة

قال المأمور: عجل بسطوتك على الأرض مستغلاً انشغال رجال الحكومة

بانقفاضة الصعيد

- أي انقفاضة؟

- هناك درويش في الصعيد يدعي أنه المهدي المنتظر وأعلن الثورة ضد  
الترك.

في أواخر شهر ابريل حيث موسم الحصاد والشمس تلقي بأشعتها على  
الغيطان المترامية، على مد البصر تقف أعواد القمح الذهبية متشابكة منتصبة  
بينما تتشني السنابل، جلس عربي ومَن معه من الأجرية أسفل شجرة  
صفصاف ضخمة يتحدثون ويشربون الماء البارد من قلة فخارية، لما تراءى  
لعربي قدوم العمدة من بعيد نهض مسرعاً هو ومَن معه إلى داخل الغيط،  
جلس البعض القرفصاء يجزون بمناجلهم اللامعة أعواد القمح، والبعض  
يكوم الأعواد ويحزمها بأحزمة من القش.

هبط العمدة من أعلى حصانه ودخل إلى الغيط وألقى التحية، قطف سنبله  
وفرکها في يده ثم نفخ في يده ليتطاير القشر ويتبقى في يده حبات القمح الذهبية  
اللامعة في ضوء الشمس، ابتسم العمدة وقال:

- أعانكم الله يا رجال، كيف العمل؟

وقف عربي قائلاً:

- نعمل منذ الصباح يا عمدة، والجو حر ولم نسترح قط أملاً في أن ننتهي من  
هذا الفدان اليوم.



قال العمدة

- عاش يا عربي، عاش يا رجالة، متي تنتهوا من حصاد كامل الأفدنة؟  
أجاب عربي وهو متظاهر في الانشغال بضم القمح: نحتاج عشرة ايام، ثم  
بعدها نقل المحصول إلى الجرن.

حرك العمدة رأسه إيجاباً والابتسامة لم تفارق وجهه

بعد أن أنهى عربي كلامه، هم العمدة ليركب فرسه ثم قال:

- اسمع يا عربي لن نتعامل في حصاد الأرض باليوميات، بل بالمقطوعية،  
فالفدان الواحد يكفيه ثمانية رجال لحصاده في يوم، ونحن لن ندفع أكثر من  
ثمان يوميات للفدان الواحد واليومية ربعة كما اتفقت معك سابقاً، أما لو  
سرت هكذا ستغرمننا عشر يوميات وأكثر لحصاد الفدان الواحد وهذا لا  
يكون أبداً، أتقضي نصف اليوم أسفل الصفصافة وتسجل عليّ يوميات؟  
تكشش شريكى يا ولد يا عربي؟

ثم امتطى صهوة جواده الذي ازدانت غرته بقطع فضية وانطلق.

وقف عربي فاغراً فاه، بينما الرجال حوله يضحكون ويضربون كفاً بكف:

- شايقين يا جدعان الرجال اللي معندوش لا عيل ولا تيل

انتهى الرجال من حصاد العشرة فدادين ووقفوا يحملون حزم القمح علي  
ظهور الجمال لينقلوها إلى الجرن، تم فك الأحزمة وتوزيع الأعواد في  
الجرن ليأتي كرسي خشبي يسمونه نورج يجره ثوران فوق الأعواد ليتم فصل  
الحب عن السنابل، بعدها وقف رجالان بمشط خشبي يسمى مدراة ليفصلوا  
الحب عن التبن.

## ( ١٧ )

استأجر الخواجة حمارًا من أمام المحطة، اعتلاه لاهثًا من فرط بدائته، أمسك صاحب الحمار بلجامه وصار حافيًا متوجهًا ناحية كوم البقر، حرارة الأرض تلهب قدميه والشمس تحرق قفاه ووجهه الأسود، بينما الخواجة ذو الوجه الأبيض الممتلى والعينين البتيتين والجسد السمين قد أمسك بمظلة تقيه قيظ الشمس وأخذ يتطلع يمينًا ويسارًا ناحية الفلاحين المتناثرين في الحقول المترامية حتى وصلا إلى القرية ثم إلى دوار العمدة، توقف صاحب الحمار وساعد الخواجة في النزول من عليه، اقترب منهما عرفة متسائلًا:

- أوامري يا خواجة

- أريد العمدة

- خير؟

- لا شأن لك.

أشار عرفة إلى المنذرة يلوح قائلًا:

- اصعد هذه الدرجات وانتظر لحين أبلغه.

دقائق وخرج العمدة إلى المنذرة بعدما تلفح بعباءته وأمسك في يده عكازًا من الأبنوس والذي حفر عليه رسوم حيوانات متنوعة، سلم على الخواجة وجلس وأمر الخواجة بالجلوس، وأمر عرفة بالقهوة  
- أوامر يا خواجة  
قال الخواجة:

- هناك حمام مهجور، منذ فتره سألت لمن هذا الحمام لأشتره، قالوا لي أنه ملك لزوجة العمدة.

قال العمدة: ليس بالضبط يا خواجة، هو كان ملكًا للشيخ بدر الرحيمي والد زوجتي ولما مات أغلقوه من يومها، فهو الآن ليس ملكًا لزوجتي وحدها، بل الورثة فيه شركاء وقرار بيعه بيد شيخ البلد الشيخ عثمان الرحيمي فهو الابن الأكبر للشيخ بدر.

- ولم يبنه الشيخ بدر في هذا المكان، ولم يبنه هنا داخل القرية  
- بناه الشيخ على رأس أرضه.

- ولم تم إغلاقه بعد موت الشيخ بدر.

- اختلف الورثة حينها، وكان الأخ الأكبر يريد لنفسه، رغم كبر التركة التي تركها الشيخ بدر إلا أن الجميع كان يريد أن يفوز بالحمام لنفسه نظرًا لموقعه الجيد بين القرى.

سكت العمدة قليلاً ثم قال: لم تريد أن تشتريه يا خواجة؟

- أصبحت لا أطيق العمل لدى الناس، لدي مبلغ من المال أريد أن أجمده في شيء خاص بي.

قال العمدة: أظن أن عثمان لن يبيع هذا الحمام بسهولة، فقد كان هذا الحمام سبباً لخلافات حادة بين الورثة، وعلى كل سأرسل معك عرفة ليدلك على بيته قد يكون له وجهة نظر أخرى.



( ١٨ )

من مندرة العمدة قال جابر:

- سمعت أن المأمور كان عندك من عدة أيام وحده دون تشريفة، ما الأمر؟
  - لم أنم طوال الليل يا جابر، أشعر بجانبتي رأسي يؤلماني من شدة التفكير، أحاول أن أوازن الأمور ولا أستطيع الترجيح.
  - لا بد وأنه أمر خطير.
  - جدًا، أخبرني بوجود قطعة أرض تزيد عن ثلاثة مائة فدان كانت منزرعة قديمًا قبل أن تهجر وتُنسى في وسط النزاع الذي بين الخديوي وعمه، والمساحة التفتت إليها مؤخرًا وبصدد ضمها لأراضي الخديوي، ولن يتمكنوا من ضمها إذا اتضح أن هناك من وضع يده عليها لمدة خمس سنوات ويدفع المال الميري المستحق، وهو سيمكننا من ذلك.
- قال جابر: وما الثمن؟
- العشرة فدادين.

- يا سيدي ستكون من أصحاب الأبعديات، أدخلني معك شريك يا عبد الرحيم.

- أخبرني عن رأيك أولاً.

قال جابر: لا مستقبل لك في تلك البلد يا ولد عمي؛ فبعد أن خرجت ابنة الرحيمي من بيتك فكريك على وشك أن يسلب من تحتك، والعشر فدادين إذا أخرجنا فدان عرفة وإرث البنات فلن يتبقى لولدك المترقب شيء، اقدم ولا تتردد، وأدخلني معك شريكاً فأنا أخوك ولا تتركني هنا وحدي فنحن في مركب واحد.

راوغ عبد الرحيم في الرد على طلب الشراكة وقال:

- ولكن الأمر به مجازفة عالية يا جابر، قد أخسر كل شيء.

قال جابر: أهل الخيل والإبل والبقر أكثر ضرباً في الأرض من أهل الضأن والماعز الذين يحومون حول حواف الصحراء دون أن يجسروا على اقتحامها.

قال عبد الرحيم: تذكر يا جابر كان عمك العمدة دائماً ما يحكي لنا قصة ذكر البط الذي رفض أن يشرب من الإناء المغروس في الأرض وصعد عاليًا كي يشرب من الدلو ذي الماء الصافي.

قال جابر: ووقع على جذور رقبتة ومات.

قال عبد الرحيم: إذن أبقى على الأرض التي تحت يدي ولا أخطر.

قال جابر: لم يكن الهدف لدى ذكر البط هو الطموح إلى الماء الصافي بل أراد أن يستعرض عضلاته أمام إنائه، ولما كان الهدف غير نبيل بالغ في الشرب حتى فقد توازنه، وهذا ما فهمه أبوك من هذه القصة التي كان يرددتها، وإلا لو فهم ما فهمته أنت ما كان حارب العربان.

( ١٩ )

فتح عثمان باب الغرفة المطل على المنذرة بعدما استجاب لنداءات غرفة المتكررة، مديده للخواجة مسلماً في ترقب وهو يضيق عينيه، بينما انصرف غرفة، جلس الرجل فجلس الخواجة تباغاً، نادى عثمان على خادمه ليحضر القهوة وابتسم مرحباً:

- مرحبا يا خواجة.

- مرحبا بك يا شيخ.

- أو فر يا خواجة.

- أريد أن أشتري الحمام المملوك لكم.

نظر الشيخ إلى الخواجة ولم يعقب بينما أكمل الخواجة:

- أخبرت أنكم فيه شركاء.

- نعم كنا شركاء، لكنني اشتريت من أخوتي نصيبهم.

- أريد أن أشتريه

أجاب الشيخ باقتضاب وعلا صوته:

- تريد أن تشتري ماذا يا خواجة؟ من الواضح أنك لا تعرف أين أنت الآن.



- أعلم أنك كبير العائلة الكبرى في القرية، ولكن ما علاقة هذا بكوني أعرض عليك شراء الحمام والحديث معي بتلك الحدة، أنا أعرض الشراء وأنت تقبل أو ترفض، ماذا لو عرضت عليك شراء محصول ما من أرضك هل كنت ستعرض هكذا وتذكرني بأنكم العائلة الكبرى بالقرية؟  
شعر الشيخ بأنه احتد دون داع فأخفض صوته قائلاً:

- مهلك يا خواجة ولا تستعجل علي، ماذا لو جئتني لتعرض عليّ شراء هذا الدوار الذي اسكن فيه ولم أعلن قط أن لدي رغبة في بيعه.  
قال الخواجة:

- حق لك أن تعترض حينها، وأولاً وآخرًا لك حق القبول أو الرفض.  
قال الشيخ:

- أهمية الحمام لنا لا تختلف عن أهمية الدوار الذي نسكن فيه، فلم نبني هذا الحمام كي نؤجره حمامًا عامًا، بل كان استراحة لنا نحن أبناء بدر الرحيمي، أحضر له والدي مهندسًا تركيًا أقام هنا عامين كاملين مدة بناء الحمام، طلب منه أبي أن يبينه على مهل وألا يكثر بأي مال يُنفق عليه، تعرف يا خواجة كم كلف بنائه حينها؟

سكت الشيخ قليلاً ليستجلب كامل انتباه الخواجة ثم قال:  
- خمسة وثلاثون ألف نصف فضة.

قال الخواجة

- هذا مبلغ ضخم، لا بد وأنه تحفة فنية.

- سأريك إياه بنفسك لتحكم.

نادى الشيخ على خادمه ليحضر له الكارثة

ركبا الاثنان الكارثة وفي طريقهما إلى الحمام قال الشيخ:

- لما كانت الجازية صغيرة، قال لها أبي متى تكبرين يا الجازية حتى أزوجك وأصنع لك فرحاً تتحاكى عنه الناحية، فقالت الجازية وهل سأذهب إلى

الحمام في البندر على الهودج، ضحك أبي متعجبًا من أين عرفت هذا فقال  
كلا بل سأبني لك حمامًا ها هنا ليوم زفافك وستكونين أنتِ أول من تدخليه  
وبالفعل شرع أبي في بنائه لما كبرت الجازية وكان افتتاحه مع زواجها،  
وبعدها أصبحنا نستخدمه كاستراحة لنا ولأبناء عمومتنا في المناسبات  
والأعياد، وكان يُغلق طوال العام وكانت مصاريف تشغيله وصيانته عالية،  
فقرر أبي أن يؤجره بتعريفه عالية حتى يقتصر استخدامه على الأعيان، فكان  
يقصده رجال الإدارة بالحكومة وكذلك عمد ومشايخ ووجهاء الناحية،  
وأكثر أيام استخدامه كان في مناسبات الزواج والأعياد وكذلك نهاية  
الأسبوع، فضمننا أنه أصبح يعمل طوال العام، وكفانا مصاريف تشغيله بل  
وكان مربحًا، وكان يتم تخصيص أيام للرجال وأخرى للنساء.

وصلت الكارثة أمام سور الحمام، فتح الخادم باب البوابة الكبيرة التي  
أحدثت صريرًا، فإذا بحديقة كبيرة ذات أشجار عالية وزهور منسقة بعناية  
تعجب الخواجة قائلاً:

- ظننته مهجورًا.

قال الشيخ وهما يمشيان داخل الحديقة متجهين إلى باب الحمام  
- لما مات أبي وجلسنا لتوزيع التركة اختلفنا لمن يكون هذا الحمام من  
نصيبه، وكنت متشبثًا لأقصى درجة ويشفع لي بأني أخوهم الأكبر،  
ورفضت أن يكون معي شركاء فيه، إلى أن انتهى الأمر بأن اشترت من  
أخوتي نصيبهم، ومن يومها وهو مغلق، وكلفت خادمًا يعتني بالحمام  
وحديقته.

فتح الخادم الباب الرئيسي للحمام فأفضى إلى قاعة رئيسية بأرضيات  
رخامية يقع في وسطها حوض كبير به نافورة لا تعمل، ظهرت أمارات  
الانبهار على وجه الخواجة

- رائع

قال الشيخ مشيراً إلى القاعة:

- هنا كانت الراحة بعد الحمام، يكون فيها حك الأحجار بالقدم وكذلك شرب القهوة.

اجتازا القاعة الرئيسية إلى الخلف فإذا بغرف عديدة كان يوضع بها المياه الساخنة بدرجات متفاوتة، تم اجتياز الغرف إلى قاعة الاستحمام الكبرى وبها مغطسين ذات أحواض مطلية بالملاط فارغة من المياه.

أشار الشيخ ناحية مصاطب تجاور المغطس

- هذه المصاطب كان يستلقي عليها المستحمون للتدليك.

يتألاً الزجاج الملون في كامل الحمام، الأرضيات من الرخام والجدران والسقوف والقباب مطلية ببياض ناصع، يثبت بالقباب زجاج متعدد الألوان ينشر ضوءاً هادئاً ساحراً.

لم يستطع الخواجة أن يخفي انبهاره

فتح الشيخ باباً صغيراً يفتح إلى الحديقة الخلفية للحمام، أشار الشيخ إلى ساقية قديمة تتوسط الحديقة قائلاً

وهذه الساقية كان يركبها ثور لرفع المياه من النهر إلى المرجل.





بعد أن انتهت معركة الجرن المعروفة وتمت المفاوضات على إجبار أولاد الوافي على ترك حياة البدو الرحل وما كان يتبعها من أعمال سلب ونهب وغارات على بيوت الفلاحين وأراضيهم، وضرورة استقرارهم شرق القرية مع بناء بيوت من الطين بدلاً من الخيام، مع استصلاح الأرض وزراعتها، بعدها توجب على العمدة الكبير الشيخ إبراهيم أن يفي بما اتفق عليه مع العربان الذين شاركوه حربه ضد عربان أولاد الوافي، فلم يكن من الممكن أن يعتمد في حربه ضد أولاد الوافي على الفلاحين الذين لا يحسنون سوى حمل الفؤوس والمقاطف في الوقت الذي كان يجيد فيه أولاد الوافي حمل السلاح وركوب الخيل والكر والفر، وكان قد اتفق أن يعطي كل قبيلة عشرين ألف نصف فضة، ثلثاً مقدماً والثلثين بعد التنفيذ ولا دخل لهم بالغنائم، وكان انتصاره ضد العربان كانت أولى خططه لتوطيد قدمه في العمودية من خلال تنفيذ سياسة الباشا الكبير محمد علي والتي كان تطمح لتوطين البدو الرحل حتى يكفوا عن أعمال السلب والنهب، على أن يكون الشق الثاني من خطته هي تزويج ولده عبد الرحيم من الجازية ابنة بدر الرحيمي وهي العائلة الكبرى في القرية على الاطلاق فيضمن ألا ينازعه

كرسي العمودية، حينها أصدق ابنة الرحيمي ثلاثين ألف نصف فضة، فعصفت به ضائقة مالية اضطرته أن يتخلى عن عبيده الخمسة عشر الذين كان قد اشتراهم من أحد قادة الجيش الذي خدم لفترة في السودان والذي أخبره أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم عبيدًا فكان على الجنود أن يظهروا نشاطًا كبيرًا في قنص الرقيق لاستيفاء رواتبهم، وكان قد اشتراهم ليوطد قدمه في بلد هو دخيل على أهلها لا ظهر له فيها ولا مال، باعهم جميعًا ولم يستبق أحدًا سوى عبد جنوبي يدعى الزبير وكان أكبر العبيد سنًا ومقربًا إلى قلب العمدة الكبير مخلصًا أمينًا ينفذ الأوامر دون استفسار، ناصحًا إذا طلب منه ذلك، أراد العمدة أن يكافئه فأمسك عن بيعه رغم حاجته الشديدة إلى المال، بني له في حوش الدوار بيتًا صغيرًا يطل على الشارع ليكون على مقربة منه، زوجته بصابحة إحدى خادמות الدوار وأنجب منها ولدًا أسماه عرفه الذي رياه العمدة الكبير على عينه وكأنه ولده وأوصى عبد الرحيم بالعناية به إذا مات، بل وكتب لعبد الزبير فدان أرض كامل وهذا كان أمرًا عجيبيًا لم يُسمع عنه من قبل، لما مات العمدة الكبير لم يتحمل الزبير فراق سيده فاشتد عليه المرض ومات حزنا عليه، يوم أن مات الزبير أصر جابر أن يغسله وحده دون حضور أي أحد معه الغسل، رغم أنه لم يسبق له أن غسل أحدًا من قبل، ولما أصر عبد الرحيم على الدخول معه إلى غرفة الغسل أغلق جابر الباب في وجهه وأسرع في غسله وتكفينه، لم يبرر جابر لعبد الرحيم إصراره على أن يكون وحده في غرفة الغسل سوى أن قال:

- هذه وصية أبوك لي قبل موته بأنه إذا مات الزبير فعلي أن أغسله وحدي ولا أسمح لأي أحد بالدخول إلى غرفة الغسل، ولا تسألني لم ولم يفتح عبد الرحيم بعدها هذا الموضوع، نشأ غرفة في كنف عبد الرحيم الذي أحبه ومكنه من بيت أبيه الزبير وعرض عليه استلام فدانه الذي ورثه عن الزبير إلا أن غرفة أصر على تركه ضمن جملة العشرة فدادين كما ترك

البنات نصيبهم في العشرة فدادين ليحفظوا لأخيهم هيبته وسط أهالي القرية، ولما بلغ عرفة مبلغ الرجال رشحه العمدة لدى نظارة الداخلية ليعينه خفياً، ذهب إلى المديرية مدة شهر ونصف للتدريب، عرضه فيها علي الأطباء لفحصه، ثم في معسكرات التدريب أمره بالاستحمام بالماء الساخن والصابون بعد أن صرفوا له ملابس الخفراء، بدلة من نسيج أسود ثقيل، يضم إلى وسطه حزام من الجلد عريض تضم طرفيه مسطحة من النحاس اللامع، ثم الجوارب أهم الغرائب يدس فيه قدميه قبل أن يدسهما في حذاء ذي رقبة من الجلد الأسود السميك!





## ( ٢١ )

تحسس الخواجة خشب الساقية العتيق بينما جلس عثمان على إحدى المصاطب الرخامية المتناثرة في حديقة الحمام بعدما نظفها الخادم من الغبار وقال:

- ماهي وظيفتك يا خواجة؟

جلس الخواجة على المصطبة المقابلة وقال:

- كنت أعمل في تفتيش الدائرة السنية، دائرة الخديوي إسماعيل.

- ولم تترك دائرة مولانا.

- دائرة مولانا نموذج للمشروع الزراعي المتكامل بالمفهوم الاقتصادي، خصصت مساحات معينة من الجفالك لإنتاج محاصيل بعينها تقوم عليها صناعة تحويلية مثل: زراعة القصب وصناعة السكر، وزراعة القطن ومصانع لحاجه وكبسه للتصدير، فضلاً عن إقامة ورش للصيانة وتصنيع قطع الغيار، يتولى إدارة تلك المصانع فنيون أوروبيون كنت أنا منهم، أما إدارة ونظارة الأرض الزراعية فمن المصريين والأتراك.

- لم أعرف أيضاً لماذا تركزت العمل في الدائرة السنية؟

- دعني أكمل لك يا شيخ عثمان، على الرغم من اشتغال الدائرة السنوية على العناصر المحددة لشكل المشروع الاقتصادي المتكامل إلا أنه كان يفتقر إلى التنظيم الدقيق، فلم يُنسق المشرفون على بعض المزارع خططهم مع المشرفين على المصانع الملحقة بها، ولم تراخ المتطلبات الضرورية للإنتاج الاقتصادي، وتحول الأمر إلى شخصنة وتصادم دائم بين المشرفين على المصانع والمشرفين على المزارع، إلا أن هذا الصدام لم يخرج صوته خارج الدائرة السنوية، فذهبت إلى مولانا كي أنقل له ما يحدث داخل الدائرة وأثر هذا الصدام على الإنتاج الذي قد يؤدي إلى فشل المشروع ككل فلم أستطع الوصول إلى الخديوي واستقباني موظف كبير بالديوان الملكي استقبالا حارًا وشرحت له ما يحدث داخل الدائرة، فشكرني ووعدني بضرورة تبليغ اسمي إلى مولانا، وعلى أن أنتظر ترقية لأنني هكذا من المخلصين لمولانا، وحينما عدت إلى الدائرة وجدت قرارًا بفصلي.

لم يتمالك الشيخ نفسه فضحك عاليًا وقال:

- بحاجة إلى الحمام؟

- لأقصى درجة.

- هذا الحمام يعز عليا جدا ولذا يبعه أمر مستحيل، وكما ترى فإنك لن تقدر على شرائه فلا يوجد حمام بالمديرية بأكملها مثله، في الوقت الذي يعز عليا غلقه لذا سأحدث معك بكل صراحة حتى تكون على بينة، الأيام القادمة ستشهد صراعًا كي أسترده كرسى العمودية من ولد البنهاوي الذي جثم على صدر القرية ويتسنى عودة الحق لأهله، ولكي أتمكن من هذا فعلي أن أفضر جموع الفلاحين من حوله حتى ينكشف ظهره، ولكي أفضهم من حوله علي أن أستقطبهم لهذا المكان يشربون ويسهرون ونقيدهم بكمبيالات ونقل ملكيات أراضيهم كما يحدث في جميع حانات الخواجات.

سكت الخواجة ولم يعقب وأكمل الشيخ:

- ستتحمل أنت مصاريف تشغيله وصيانته إلى دخول أول زبون، بعدها يتحمل الحمام مصاريف تشغيله وما يتبقى نقسمه، وسيكون بيننا عقد شراكة لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد.
- عرض جيد يا شيخ عثمان ولكن أعطني مدة أفكر، وإن لم أرد عليك في غضون عدة أيام فاعلم أنني رفضت عرضك.
- وفي حال قبولك؟
- لو قبلت ستجدني آتياً ومعى العمال الذين سيشرعون في صيانته لتبدأ شراكتنا.



( ٢٢ )

جلس العمدة الكبير الشيخ إبراهيم ذات مره في مندرته يحكي للجمع قصة ذكر البط الذي سقط على جذور رقبته:

بعد علفة دسمة من الفول وحببات الذرة... رفض ذكر البط أن يشرب من الإناء المنخفض المغروس نصفه في الأرض وتعلل بأن الماء صار قذرًا.. وأبى إلا أن يصعد عاليًا كي يتمكن من الشرب من حافة الدلو ذي الماء الصافي... ظل يحكي لإنائه عن نفسه الأبية وهممه العالية وأن من يتهيب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر وأشياء من هذا القبيل التي تروحي بأنه صاحب تطلعات... وبالفعل صعد ذكر البط عاليًا كي يتمكن من الاقتراب من حافة الدلو.. وقف وكأنه قائد حربي مظفر.. بينما إناث البط ظللن يناشدونه بحق أن ينزل ولا يخاطر بنفسه... فهو سبعهن وجملهن... فهن يعرفن قدراته جيدًا فهو لا يجيد سوى الأكل والزواج.... أما هو فقد كان جبانًا وقحًا، شراسته هشة لا يهجم إلا إذا أمن العقاب وإذا تمكن من أعدائه فإنه ينكل بهم بلا رحمة... كان يعلم جيدًا أنه ما صعد إلا لكي يستعرض قدراته أمام إناث البط كي يضم المزيد منهن إلى حظيرته...

إنها نزعته الذكورية التي تدفعه إلى السيطرة على كل إناث البط... تقدم ذكر البط إلى حافة الدلو وظل يشرب.. والماء من الدلو يتناقص حتى فقد ذكر البط توازنه فسقط على جذور رقبتة.. رأسه أسفل الدلو بينما جسده في الأعلى... لم تنتبه إحداهن إلى سقوطه سوى في اللحظة الأخيرة تلك اللحظة التي تسبق المصائب ولا يكون بمقدور المرء سوى النظر إلى ما يحدث وهو يسمع دقات قلبه المتلاحقة.. يا لها من نهاية مؤسفة لهذا الوجيه... ظلت إناثه يحكين عن شجاعة ذكرهن الذي مات لأنه لم يقبل الدنية.. ثم يردفن (الزرائب لا يبقى على مزاولها سوى شر البقر).. بينما كان أعداءه يرددون (السعي لما هو أكثر من المتاح قد يميته مية تكون عبرة!!...)

( ٢٣ )

دائما ما يذكر حسنين لزبائنه بأنه ليس حلاقا عاديا بل حلاق صحة معتمد لدى مجلس الصحة، اعتمده بعد ما أجره له اختبارا في حضور شيخ طائفة الحلاقين، بعدما دفع رسما عشرة قروش صاغ، وطبقا للتصريح السعلق بحانوته والذي وضعه في إطار أكبر بكثير من التصريح نفسه لجذب الانتباه، فله به أن يجري عمليات الختان وبعض الجراحات الصغيرة، وبعد اعتماده من مكتب الصحة توقف عن زيارة البيوت إلا للجراحات الصغيرة والختان، ولا يذهب كمزين إلا للعمدة صاحب الفضل الكبير وكذلك مشايخ البلد وأعيانها، جلس عرفة على الكرسي الخشبي داخل الحانوت، ليجد فوق رأسه ساقا معدنية مثبتة من طرفها في الحائط وحاملة في الطرف الآخر المقوس أنية معدن بشكل القمع مثقوبة ثقبا ضيقا لينسكب منها على رأس عرفة خيط ماء فاتر يستعمله حسنين في غسل الرأس بالصابون مستخدما أظافره في حك فروة الرأس واللحية، بعدها جفف رطوبة الرأس واللحية بفوطة قماشية، ثم تناول الموس بعدما ارتكز بقدمه اليسرى على الكرسي الخشبي، ثم أسند رأس عرفة وشرع في إزالة الشعر ابتداء من أعلى الخد اليسرى إلى أسفلها قائلا:



— — — — —  
- ألا صحيح يا عرفة هو سيدك العمدة الكبير كان قد أعتق أباك من الرق قبل موته؟

- نعم، بل وكتب له فدان أرض، فقد كان يحب والدي جدًا.  
أظهر حسنين عجبه:

- ابيه، فدان كامل؟! ولما لم تستلم أنت الفدان هذا؟ ألسنت وريثه؟  
- لم يمنعني العمدة أي شيء، أطلبه، يعتبرني كولدته الذي لم ينجبه، ووعدني أنه سيزكي اسمي لدى نظارة الداخلية لتنصبي شيخ غفر.  
- ابيه، شيخ غفر مره واحدة.

- ووعدني بأنه سيزوجني بهانة ابنة الشيخ محفوظ  
ضحك حسنين عاليًا:

- وأنت لم تجد سوى بهانة بالبلد كلها، دي أكبر منك وفاتها قطار الزواج.  
- هم خمس سنوات فقط، انا أريدها، أحبها يا حسنين، ويكفي أنها ابنة الشيخ محفوظ.

ضحك حسنين عاليًا ثم قال:

- تقصد حتمًا أنها ابنته الوحيدة، وسترث أبيها في فداني أرض ودارا  
وجاموستين دا غير الكام خروف.  
- اقول لك أحبها يا حسنين.

- وماله يا سيدي، تحبها ولديها أطيان فيدوم الحب بينكما، أفضل من أن تحبها والفقر قرينها، فالفقر كليل أن يقتل أي حب.



(٢٤)

ظل شيخ البلد عدة أيام ينتظر قدوم الخواجة إلى أن فقد الأمل وأصيب باليأس والخيبة، إلى أن فوجئ بمجيئه على رأس عدة عربات كارو محملة بفنيين وعمال ومواد بناء وشتلات وأخشاب، فرح شيخ البلد لما رآه وتلقاه بترحاب كبير، تعلق الخواجة عن تأخره بسبب بحثه عن عمال مهرة ارتضوا المجيء إلى الريف، أخبر الشيخ بأنه في حاجة إلى عمال يحفرون بئرًا ويصلحون الساقية، هم الخواجة بالانصراف إلى الحمام فأمر الشيخ خدمه أن يصطحبوا الخواجة وأن يكونوا في خدمته، فتحت بوابة السور وحددت مهام كل عامل، شرع بعضهم في خلع كل أرضيات الحديدية وإعادة تبليطها مع تنحية المكسور والمهترئ جانبًا، البعض الآخر شرع في تشذيب الأشجار وزرع الشتلات والزهور، اصطحب الخواجة الفني المسؤول عن إعادة تشغيل الحمام في جولة في خارج وداخل الحمام وجعل عدة عمال في خدمته، وصل شيخ البلد مصطحبًا أولاد عبد الدايم الذين شرعوا في حفر البئر بالمكان الذي حدده الفني، وقف الخواجة بجوار الشيخ وأشار قائلاً:

- هنا سيتم بناء جدار حيث يتم تقسيم الحمام ككل إلى جزأين، الجزء الأول وهو الحديقة وفيها سيتم استقبال عامة الفلاحين وتقديم الطعام والشراب، والجزء الثاني وهو مبنى الحمام ولا يكون إلا للأعيان.

ابتسم الشيخ قائلاً:

- عظيم، عظيم

قال الخواجة: ترى يا شيخ عثمان أنني أوفيت.

ابتسم الشيخ قائلاً:

- غدا نذهب إلى القاضي الشرعي لكتابة عقد شراكه في الحمام بخمس سنوات كما اتفقنا.

أمر الخواجة أحد العمال بتركيب اللافتة التي جلبها معه، مكتوب فيها بالخط المدني بورصة يني.





(٢٥)

عائلة الرحيمي أهم عائلات القرية، وترجع نشأة العائلة إلى الشيخ مهدي الرحيمي الذي كان لا يملك سوى أفدنة قليلة لا تؤهله لشيء، عرض عليه أحد جيرانه أرضه للبيع فاضطر الرحيمي أن يقترض من أحد تجار البندر خمسة آلاف نصف فضة نظير توريد سبعون ضريبة أرز في موسم الحصاد، اشترى الرحيمي بالمبلغ الأرض التي تجاوره مع ابقاء مبلغ من ثمنها إلى العام القادم، أوفى بالسبعين ضريبة في الموعد المحدد، خمسون ضريبة نتاج أرضه واستكمل الباقي كسلف من أخواته وأبناء عمومته على أن يسدد العشرين ضريبة من نتاج العام القادم، ولما جاء وقت الحصاد للعام التالي أوفى الرحيمي بكل مديونيته، مما جعله يتجرأ على اقتراض خمسين ألف نصف فضة من التجار وأصحاب الشون، اشترى بها أرضاً جديدة ضمها إلى أرضه، وورد بالمبلغ المقترض إلى حواصل الشون محاصيل مختلفة على مدار ثلاثة أعوام ما بين أرز وقمح وشعير وفول وسمسم، بعدها قرر الرحيمي أن يبيع محصوله رأساً إلى مستهلكيه، فنحى أصحاب الشون جانباً، واستأجر لنفسه شونة كبيرة وقاعات تخزين، ملاًها بتاج أرضه، كما اشترى من الفلاحين محاصيلهم لتكتظ شونته بمختلف المحاصيل. بدأ

نجم الرحيمي يسطع في الريف والمدينة وساعده أبنائه بدر ومصطفى والناجي في تجارته وفي إدارة شؤون القرية، نوع الرحيمي معاملاته التجارية مع تجار ورجال دين وعسكر عاملين بالتجارة، بعدها اشترى الرحيمي شونة كبيرة مكونة من عشرة حواصل بمبلغ ثلاثين ألف فضة، ولما أصبحت شون ومخازن الرحيمي عرضة للسرقة، اضطر أن يقدم على شراكة مع مقدم الدرك ورجال الدين ليحمي تجارته وليفتح لنفسه مجالات أوسع فتوسعت تجارته من البندر إلى المديرية.

دائما ما كان ينصح الرحيمي أبناءه قائلاً:

- إذا كنت محتاجاً إلى أن تكون كبيراً فعليك أن تمسك بكامل الخيوط بيدك، اجعل من نفسك مركز لدائرة إنتاجية متكاملة تدور حوله العملية الانتاجية بقطاعها المختلفة للحد من النفقة على السلعة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح، فعملك في الانتاج الزراعي يجعلك تنتج المحاصيل بأسعار منخفضة في مصادرها الرئيسية، وشراؤك لوكالة تفوت الفرصة على الوسيط التجاري الذي يُصرف لك السلعة للمستهلك.

بعد وفاه الرحيمي أصبح ولده الكبير بدر هو كبير القرية، تزوج بدر العديد من النساء أنجب منهم العديد من الأبناء أكبرهم عثمان، والجازية.

شكّلت غارات البدو على الفلاحين خطراً كبيراً على الحياة الاقتصادية، فضلاً عن اضطراب الأمن، وحتى يتخلص الباشا محمد علي من متاعبهم أغراهم بالتوطين فمنح من استقر وترك حياة الصحراء مساحات واسعة من أطيان الأبعاديات، وأعافها من الضرائب ووعدهم بالأعمال السخرة أو الخدمة العسكرية، ولما أجبر العديد من القبائل على التوطين لم يكن ليألفوا حياة الاستقرار بسهولة، فلم يغير كثير منهم أنماط حياتهم، وظلوا يسكنون الخيام، وتركوا الأرض للفلاحين يزرعونها لحسابهم مقابل نصف المحصول، فصدر أمر قضى بمنع شيوخ البدو من تأجير أطيانهم أو مزارعتها، وألزموا أن يتولوا زراعتها بأنفسهم، ورغم الأوامر والتعليمات المتكررة استمر البدو على تلك الحال، واستبدوا بالفلاحين، فكانوا يأخذون ما يروق لهم من الأراضي الخصبة، ويتركون للفلاحين الأراضي الأقل خصوبة، ويطلقون إبلهم وأغنامهم في حقول الأهالي، ووضعوا المجرمين والمتهربين من سداد ما عليهم من ضرائب تحت حمايتهم، فكانت الحكومة تجرد الحملات عليهم لتأديبهم وانتزاع ما تحت أيديهم من الأطيان إلى أن اضطرتهم سطوة الدولة إلى الدخول في طاعة الحكومة.



رغم مرور أكثر من خمسة وعشرين عامًا على توطين قبيلة أولاد الوافي إلا أن الجيل القديم الذي حضر التوطين وأجبر عليه لا يزال يرتبط بعاداته القديمة الخاصة بحياة البدو التي عاشوها، ودائمًا ما ينكرون على الجيل الجديد الذي أصبح يتملص من تلك العادات واندمجوا مع الفلاحين في زراعتهم بل والأدهى أنهم تزوجوا منهم، وكان ممن حضروا معركة الجرن الشيخ حربي الذي أصبح كبير القبيلة بعد موت أبيه الشيخ الهنداوي، وكان حربي رجلًا نحيف الجسم ذا قامة كبيرة وبشرة شديدة السمرة، عينه حاده تغطيها الجنون بعض الشيء، يرتدي قميصًا من الصوف الأبيض مع حزام من الجلد فوقه جلباب من الصوف الغامق المقلم بالأبيض ومفتوح من الأمام دون أكمام ومشقوق من الجنبين لمرور الذراعين، دائمًا ما يجلس ويجوار منه بندقية ذات سير جلدي وخنجر مقوس مزخرف بالفضة ذي حدين، بعد التوطين ابنتى لنفسه بيتًا من الحجر أحاطه بسور احتوى على حديقة غناء، ما إن يستيقظ في الصباح حتى يترك زوجته في البيت الحجري متجهاً إلى خيمته المنصوبة في سور المنزل المليء بأشجار النخيل وقد أطلق إبله في السور، كان قد أنشأ خيمة كبيرة من صوف غامق يستقبل فيها رجال وأبناء القبيلة ويقضي بها معظم يومه، في الصباح شرع خادمه في إشعال النار في الحطب بعد أن طحن القمح في الرحى ليخبز له فطيرة الروجا دون خميرة، وضعها أمامه بجانب طبق مع العدس المطبوخ بالبصل، حمص البن في ملعقة كبيرة وضعها على النار ثم وضع ما تم تحميصه في هاون نحاسي صغير ليطحنه ويضع ما تم طحنه في غلاية نحاسية يضعها على الجمر إلى أن يفور ما فيها ثم يصبه في كوب فخاري ويقدمه لسيدة، لما سمع حربي صوت صديقه الشيخ عثمان بالخارج نهض قائمًا ليستقبله، دخل الرجال الخيمة وجلسا أمام الطعام

قال عثمان:

-افتقدت الروجا، فقلت أتي لأفطر معك.

نادى حربي على خادمه ليصنع القهوة ويخبز فطيرة أخرى ثم وجه كلامه لعثمان:

- حمدا لله على سلامتك يا رجل، متى جئت من أسيوط؟، ألم تقل أنك ستغيب حتى تُصرف محصولك هناك.

قال عثمان مستنكراً ملوحاً بيده:

- تعيش أنت في خيمتك ها هنا منعزلاً عن العالم، أما سمعت بهم حدث في أسيوط؟

أنصت حربي لعثمان الذي أكمل:

-ركبنا النهر بالمحاصيل وما ان وصلنا بمحاذاة قاو حتى وجدنا بواخر قادمة عليها قوة عسكرية تتكون من أورطئين ومدفعين، أمرونا ألا ننزل إلى أسيوط وأن نعود من حيث جئنا، أمرت المراكب أن تبتعد حتى تكون في مأمن وغلبني الفضول لأعلم بهم يحدث، ظلمت أتساءل إلى أن أخبرت بأصل الموضوع.

تقدم الخادم ووضع الفطيرة وكوب القهوة أمام الشيخ الذي أكمل قائلاً:  
الأمر وما فيه أن أحد الأقباط اشترى جارية مسلمة وراودها عن نفسها، فرفضت ولجأت إلى الشيخ أحمد أحد رجال الدين لحمايتها من سيدها المسيحي، فقام الرجل بحمايتها، فرفع المسيحي شكواه إلى السلطات المحلية لإعادة الجارية إليه وعلى ذلك طلب حاكم المنطقة من الشيخ تسليم الجارية فامتنع وتوجه إليه ناظر القسم فلم يعبأ به وأظهر عدم المبالاة بالحكومة بعد أن اجتمع حوله كثير من الفلاحين من القرى المجاورة، فأرسلت إليه السلطات قوة كبيرة بقيادة مدير أسيوط وجرجا فتمكن الشيخ ومن معه في التغلب عليهم فأرسلت الحكومة المركزية قوات جديدة ومعهم

عدد من المدافع وحدثت بين هذه القوات وجموع الفلاحين معركة استخدمت فيها قوات الحكومة المدافع وانتهت بمقتل الشيخ وبعض من معه وأمكن لهذه القوات القضاء على الثورة وتفريق جموع الفلاحين وحاربت هذه القوات القرى التي كانت معقلاً للثورة وهي قاو والريانية والشيخ جابر والنظرة وتم نفي عدد من الفلاحين خارج البلاد وتفرقت نساؤهم في البلاد.

- كل هذا حدث؟

- أحمد الله أنني لم أصل هناك قبلها بعدة أيام، وإلا تعرضت مراكبنا للسلب، حيث قبلها استطاع الثوار التابعون للشيخ من تهديد الملاحة في النيل واستولوا على العديد من السفن المحملة بالبضائع.

قال حربي:

- حمدا لله على سلامتك

انشغل عثمان في الطعام وقال حربي:

- كانت عندي من عدة أيام غجرية عجوز تقرأ الطالع وكانت معها شابة جميلة، استدرجتهما في الكلام وعرفت أنهما كانتا تطوفان بالقرية ونادت عليها الجازية أختك وهددتهما حتى يرحلا، ماذا حدث؟

ضحك عثمان وهو يتناول كوب القهوة الفخاري وقال:

- عبد الرحيم جن عقله على كبر، يريد أن يتزوج من الغجرية الشابة كي تنجب له الولد، ترى ماذا يريد ولد البنهاوي أن يفعل، والله لقد نفذ صبري، يريد أن يجمع بين الغجرية وابنة بدر الرحيمي، تركت الجازية له البيت وهددت الغجر فرحلوا.

قال حربي:

- ولد البنهاوي أعطاك خيطاً لتبدأ منه كي تصل إلى مبتغاك، ألم تصبر عليه كل هذه السنوات بسبب النسب؟ فأنت كبير الرحايمة أكبر عائلة بالقرية



وحق لك أن تكون على رأسها كبيراً، انطلق وأنا في ظهرك، فلن أستطيع أن  
أنسى ثأري مع أبيه.

- وماذا نفعل؟

- العجرية وأهلها لا بد أن يعودوا إلى القرية، حتى تظل العلاقة متوترة بين  
الجازية وولد البنهاوي، لتنتهي تلك العلاقة بطلاق الجازية، وبذلك تهدم  
الحائط الذي كان يمنعك عن مطالبتك بكرسيك تنفيذاً لوصية أبيك.

- ثم؟

- ثم نخرجه أمام المركز والمديرية، بافتعال غارات على الفلاحين بالقرية  
يعقبها شكاوي إلى المديرية بضعف عمدتها الذي لا يستطيع حماية القرية،  
بعدها سيغضب رجال الإدارة وسيبحثون عن القوي الأمين كبير العائلة  
الكبرى، سليل الحسب والنسب الذي بإمكانه حماية القرية.

ابتسم عثمان:

- ما كل هذا الدهاء؟

أكمل حربي: حتى تكتمل الخطة أرسل في القرى رجالك يبحثون عن  
العجرية وأهلها ويأتون بهم جبراً



## (٢٧)

- في الصباح جلس عبدالرحيم في مندرته يتحدث مع الشيخ محفوظ :
- الولد عرفة دا غلبان، اعتبره ولدي الذي لم أنجبه، قريبًا سأرسل خطاب تزكية للمديرية كي ينصبونه شيخًا للغفر، فهو يرث عن أبيه فدان أرض سأمكنه منه بعد زواجه، وأشار ناحية دار عرفة قائلاً:
- وهذه الدار كنا بنيناها لأبيه وهي له الآن ولأولاده من بعده.
- دخل عرفة بصينية الإفطار، فقال العمدة:
- ضع الصينية يا عرفة واذهب احضر لنا القهوة.
- ثم أكمل العمدة كلامه:
- أنا لا أسمح لأحد من الغفر بالصعود إلى المنذرة أو دخول بيتي سوى عرفة فهو ابني، أوصاني به العمدة الكبير قبل موته.
- ظل الشيخ محفوظ متعجبًا من كل هذه الديباجة فهو يعرف كل هذا.
- أكمل العمدة قائلاً:
- وأنا الآن أريد أن أزوجه وأفرح به، ولما تحدثت معه في هذا الأمر أخبرني بأنه يريد الزواج من ابنتك.

ترك الشيخ اللقمة من يده وانتفض قائما:  
- ماذا تقول يا عمدة أمهيني في بيتك، على آخر الزمن أتريدني أن أزوج ابنتي  
الوحيدة من عبد ابن عبد.

أمسك العمدة ذراعه برفق وأجلسه قائلاً:  
- اجلس يا شيخ محفوظ، أنا أتحدث إليك يا رجل، ولك الخيار، ليس غيباً  
إن كان أبوه الزبير عبداً فهو لم يولد هكذا، بل كان حراً إلى أن سابه رجال  
الباشا من الحبشة وباعوه في مصر واشتراه أبي وأعتقه قبل موته لما رآه رجلاً  
أميناً وكتب له فداناً وبنى له هذا البيت وزوجه فيه.

- اعذرني يا عمدة فالأمر صعب عليّ، وهذا الزواج لن يكون أبداً.  
ضحك العمدة وقال:

- قل إن شاء الله

- إن شاء الله لن يحدث أبداً.

- يا شيخ محفوظ أنت شيخنا ونحن نتعلم منك، لا فضل لعربي على  
أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح.  
سكت الشيخ ولم يعقب، فأكمل العمدة كلامه:

- لا تستعجل في الرد يا شيخ محفوظ، شاور أهل بيتك ورد عليّ، وإن  
رفضت فلن يؤثر ذلك على علاقتنا فأنت أخي.



(٢٨)

أخذ سالم يقاوم الرجلين الذين يمسكاه من ذراعه، ولما أدخلاه على كبيرهم  
قال سالم:

- ما الأمر يا أسيادنا؟ وماذا تريدون مني؟

قال عثمان:

- اجلس يا وجه الغراب أنت، ماذا نريد منك؟، جئنا بك ها هنا لمصلحتك.  
ضحك سالم متهكمًا:

- لمصلحتي؟ ما عاهدت ذلك على الأعيان.

قال عثمان:

- لم تركت القرية ورحلت؟ نصبت خيمتك في أرضنا دون استئذان متذرعًا  
بإذن العمدة لك، وهل ولد البنهاوي أصبح له حكمًا في أرضنا؟ تجمع  
حولك الأطفال والصبية فتركناك حتى لا نقطع رزقك، رحلت دون استئذان  
ولما شرعنا في طلبك رأيناك تقاوم رجالنا.

قال سالم:

- العمدة أذن لي ولم يحدد لي أرضًا، وقفنا ننصب خيامنا في أرضكم فلم  
تعترضوا فاعتبرناها موافقة، ولما اعترضت الست الجازية على كامل

وجودنا بقريبتكم وأمهلتنا يوماً واحداً فقط وإلا سلطت علينا الغفر يحرقون  
لنا خيامنا ولا أدري لمَ فقصرنا الشر وتركنا القرية ورحلنا دون اللجوء إلى  
العمدة.

قال عثمان:

- لا سلطة للجازية على الغفر، فكبير الغفر عرفة، وولايته لسيدته منقطع  
النظير.

قال سالم: يا كبير الرحايمة أنتم أكابر والداخل بينكم خاسر، لا دخل لي بكل  
هذا.

قال حربي: اسمع يا سالم، أي وقت غير هذا إن حاولت الدخول بيننا  
فستكون خاسراً حقاً، أما الآن والهوة كبيرة بين الجميع فهذه فرصتك  
فاقتنصها وستكون أكبر فائز، وإلا عشت حياتك تنتقل بخيامك نظير حفنة  
دقيق من هنا أو كوز ذرة من هنالك يمن بها عليك الصبية والأطفال.

سكت حربي قليلاً ليستجمع شتات سالم ثم قال: ماذا لو تزوجت ابنتك من  
العمدة؟

سكت سالم قليلاً من هول المفاجأة ثم قال:

- زينة بنتي، وكيف لي بهذا؟

- لقد تحدث العمدة صراحة مع الجازية أنه يريد الزواج من زينة كي تنجب  
له الولد، وهذا هو سبب الهوة التي حدثت مؤخراً عليك اقتناصها، الجازية  
تركت له البيت وهذا ما جعلها تهددك إن لم ترحل.

- كيف لي أن أعود ثانية والعمدة نبه عليّ ألا أترك القرية إلا بأذنه.

- لا تخف دوار العمدة لا يخلو تلك الأيام من رجال الحكومة نظراً لأن  
جمع الضرائب تزامن مع فيضان النيل، فلن ينتبه لرحيلك أو عودتك.

مد سالم كفه أسفل طاقيته ليحك رأسه قائلاً: وماذا عليكم بكل هذا، وكيف  
لكبير الرحايمة أن يفسح لنا الطريق لمثل هذا وأخته هي زوج العمدة؟

رد عثمان:

-من المفترض أن يكون ردي أنه لا شأن لك بهذا، ولكن ليطمئن قلبك، فكما تعلم فأنا كبير الرحايمة وكرسي العمودية حقنا المسلوب، هبط علينا البنهاوي الكبير فانتزعه منا، أضاع أبي هذا الحق يوم أن وافق أن يكون شيخاً للقرية في ظل تنصيب إبراهيم البنهاوي عمدة بل الأدهى أنه زوج أختنا من ابنه وكنا جميعاً نرفض هذا الزواج وأوصانا قبل موته ألا ننازع عبدالرحيم الكرسي وأن أرتضي بمشيخة البلد، وبعد موت إبراهيم البنهاوي تولى عبدالرحيم فسكتنا احتراماً للنسب وللوصية، أما الآن فقد حانت اللحظة التي انتظرتها حتى يعود الحق لأهله، عبدالرحيم رجل طيب ليس شديداً كأبيه، وأهل القرية يحبونه بل أغلب الرحايمة يحبونه أيضاً ويرتضون به عمدة، أما لو تزوج العجيرية مفضلاً إياها على بنت الرحايمة حينها سيخسر تعاطف الكل وتأييدهم، فضلاً عن استردادنا إرث الجازية الذي تحت يده والذي كان يقوي شوكته لدى رجال الحكومة، فما عليك الآن سوى أن تذهب إلى العمدة بدعوى أنك كنت تمر من أمام الدوار فقدمت لتسلم عليه وسيتجدد الكلام في هذا الموضوع.

قال سالم: لا تؤاخذني يا كبير الرحايمة، وما مصلحة كبير العربان في ذلك. أجاب: تار قديم مع أبيه، من أيام معركة الجرن، أيام لا تعيها أنت.



( ٢٩ )

دخل العسكري حجرة المأمور، وبعدهما ألقى التحية ووضع أمامه ملف وورد  
التلغرافات

فتح المأمور الملف وسحب أول تلغراف وقرأ:

إنه بنفوس ولي النعم، تم قتل أحمد الطيب رئيس الأشقياء يوم السبت  
٤ مارس ١٨٦٥، الساعة الحادية عشرة من النهار أثناء مضاربة بجذو من جلة  
مدفع، وغالبية الأنفار الأشقياء الذين كانوا يتبعون راية الفساد قد قتلوا  
والباقين الذين لم يتم ضبطهم جار القبض عليهم، وقد جرى التعرف على  
جثة أحمد الطيب من بعض أتباعه المقربين الذين تم القبض عليهم عقب  
المعركة، ومن بينهم حامل لوائه وبواسطة اثنين من المسيحيين لعاهما  
أصحاب الشكوى السابق الإشارة إليها وعقب المعركة تم ارسال عناصر  
من الهجانة لمطاردة الفلاحين الفارين كما تم تكليف قوة للمرابطة بالموقع  
لمدة ثمان عشرة يوماً، ولأجل أن يكون ذلك معلوماً لديكم يصير الإعلان  
الكامل عن ذلك).

( ٣٠ )

حضر ناظر القسم في جمع من العساكر ومعهم الصراف لجمع المال الميري، استقبلهم العمدة الذي أمر أحد الغفر بأن يطوف بالقرية ليعلن عن مجيء الصراف ومن ثم ضرورة الحضور ناحية الدوار، انقبضت قلوب الموسرين وارتعدت قلوب المعسرين، جلس العمدة مع ناظر القسم في المندرة عاليا، بينما جلس العساكر والصراف في الجرن أمام الدوار وقد تجمع حولهم جموع الفلاحين، جلس الباشصراف صليب منقريوس وقد فتح دفتره وأخذ ينادي على جموع الفلاحين ليدفع كل ما عليه، ومن لم يدفع يتم تنحيته بتسوة جانباً تمهيداً لجلده مؤخرًا، بعد أن انتهى الصراف من حساباته انهالت العساكر ضرباً في جموع الفلاحين الذين لم يدفعوا قال العمدة للناظر وهو يضرب كفاً بكف:

- كيف يسددون وهم يجبرون على العمل في صيانة الجسور وحراستها زمن الفيضان، كما ترغمهم السلطة على العمل في دوائر كبار الملاك وتغاثيشتهم، فيساقون إلى العمل فيها هم وأولادهم ودوابهم، يقيمون في العراء ويتعرضون لتقلبات الطقس، يتعرضون لأقسى صنوف العقاب البدني من المشرفين الذين يلهبون ظهورهم بالسياط إذا ما بدا منهم أي تهاون أو

كسل، وهم مطالبون - في نفس الوقت - بفلاحة أطيابهم الأثرية، وأداء ما عليها من ضرائب، فإذا عجزوا عن ذلك أو قصرُوا في أداء الضرائب كان عقابهم الضرب.

ضحك الناظر قائلاً:

- لا تشغل بالك يا عمدة، المهم ماذا ستغدينا اليوم؟  
أمر العمدة بخروف كامل وُضع أمام ناظر القسم الذي قال بعدما اقتلع فخده منه واخذ ينهش فيها بأسنانه.

- صحيح يا عمدة لمَ لم تحضر أمس الاجتماع الذي بالمركز، لقد سأل المأمور عليك.

تلجلج العمدة قائلاً:

III -

باغته الناظر قائلاً:

- لا تقلق يا عمدة رديت غيبتك وأخبرت المأمور أنك رجلنا وعدم حضورك لم يكن سوى لأنك مشغول بتجهيز المال الميري من الفلاحين استعداداً لنزولنا اليوم، لا أخفيك سرّاً يا عمدة لقد كان المأمور غاضباً من عدم حضورك وكان مصرّاً على عمل إنذار رسمي.

سكت الناظر قليلاً ليراقب التوتر الذي بدأ يظهر على قسّمات العمدة واستغل الناظر الفرصة منادياً:

- يا ولد يا عرفة، احمل هذا الخروف وغلفه وعد به إليّ، سأحمله معي.

نظر عرفة إلى العمدة، فأشار بالإيجاب

أكمل الناظر الكلام:

- ثم ظلمت وراه حتى سامحك.

تلاشى توتر العمدة قليلاً



التفت الناظر ناحية صراخ الفلاحين الذين يتم جلدهم وصاح غاضباً على  
الجلاد وقد نظر له نظرة حادة ارتعدت لها فرائصه:

- أنت يا حيوان!! ألا تعلم أن هذا الصراخ يزعجني، خذهم واجلدتهم بعيداً.  
طرح الجلاد أحد الممتنعين أرضاً، وبينما وجهه للأرض أمسك به عدد من  
الرجال من يديه ورجليه وقام بضربه بالكرباج، الفلاح يفضل الجلد  
بالكرباج كي يحتفظ بقروشه القليلة التي تساعد على معيشته حيث يعتقد  
أنه إذا دفع الضرائب دون تردد فإنهم سيطلبون منه المزيد بحجة أنه يستطيع  
الدفع وفي كل الحالات فإنه يتعرض للعقوبة في النهاية.

قال الناظر متحدثاً عن الاجتماع الأخير:

- الأمر وما فيه يا عمدة أن العساكر الذين خرجوا من العاصمة إلى الأقاليم  
وخاصة في نواحي الريف تضرروا من الإقامة الطويلة في الخيام في الحر  
والبرد، وفي ظل احتياج الخيام باستمرار إلى التجديد والترقيع، فقررت  
الحكومة بناء قشلاقات شتوية يتم بنائها من الطوب المحروق، فكتبت  
مراسيم إلى النواحي بسائر القرى بعمل الطوب اللبن ثم حرقه وحمله إلى  
محل البناء، وفرض على قرينك خمسون ألف لبنة تلتزمون بضربها وحرقها  
وتوريدها في مدة شهر.

ضرب العمدة كفا بكف قائلاً:

- أي كلام هذا يا جناب البك، نحن في موسم حصاد، كيف لي أن أنتزع  
الناس من أراضيهم وهم المتبقون بعد العدد الذي أرسلناه لشق ترعة  
الإبراهيمية والآخرين الذين تم إرسالهم لحفر القناة.

- لا تجهد نفسك يا عمدة في التفكير، كل ما عليك أن توزع الخمسين ألفاً  
على مشايخ قرينك وكل شيخ ملزم بتوفير العدد المطلوب من منطقته.

- هما لا يتعاونان معي، دائماً ما يريدان أن يحرجاني أمام رجال الإدارة.

( ٣١ )

ألقى سالم التحية على العمدة في مندرته قائلاً:  
- كنت أمر بجوار الدوار، وقلت لا بد لي من أن أمر على عمدتنا، ولي نعمتنا  
كي أسلم عليه.

قال العمدة: لماذا تركت القرية دون إذن يا سالم ألم أنك عن هذا؟  
- نحن لم نترك القرية يا عمدة بل كان هناك مولد سيدي شبل، وجنابك يعلم  
أن الموالد هي عملنا، حضرناه وعدنا.

طلب العمدة من سالم أن يجلس بجواره فأبى ولم يجلس إلا حينما احتد  
عليه في الطلب وقال: أريد أن أناسبك يا سالم.

انتفض سالم قائماً متظاهراً بالمفاجأة: تناسبني أنا، تناسبني في من؟  
قال العمدة: اجلس يا سالم، ما شأنكم اليوم كلما حدثت أحداً في أمر الزواج  
انتفض قائماً، أريد زينة لي.

قال سالم: زينة؟ دا شرف كبير قوي قوي لنا يا عمدة.

- وما طلباتك؟

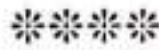
- لا طلبات لدي يا عمدة، فأنتم بيت الكرم والجود.

- سأصدق ابتك خمسين جنيهاً.

- كثير يا عمدة.

- ليس بكثير شريطة ألا أراكم في القرية ثانية، إلا إذا شرعت في طلبكم.  
- أو افق.

قال العمدة: معك أسبوع وتحضرواها هنا لتستلم الصداق ونكتب الكتاب.



قال العمدة لعرفة: لقد خطبت لك ابنة الشيخ محفوظ، ومنتظر رده.

قال عرفه أراك تعجلت يا عمدة.

- تعجلت فيم؟ أليست هذه رغبتك؟

- لا أقصد ابنة الشيخ محفوظ، بل أتحدث عن العجورية، كيف ستكون

العجورية هي ست الدار بعد ابنة الرحيمي؟

- يا عرفة لقد تزوجت من هي أعلى نسباً ومالاً في القرية فتمردت علي، دعنا

نجرب أحقرهم نسباً لعلنا نستدرك ما فات، وأنا أريدك أن تعرف أن ولد

الهنداوي وولد الرحيمي لن يكفا عن تدبير المكائد لي حتى لو الجازية

موجودة في بيتي، دعني أخطط لحياة جديدة نحدد نحن فيها الزمان بعدما

حددنا المكان، نكون نحن الأسياد، لن نستشعر فيها أننا دخلاء على أحد

ولم نتترع من أحد ما يخصه، سنأكل ملء بطوننا مما تنتجه أرضها وحينها

سننام ملء جفوننا.

- والله ما أنا فاهم حاجة

قال العمدة:

- ستفهم لاحقاً، احضر لي عربي وأولاد عبد الدايم.





( ٣٢ )

وقف المركب موازيا للمرسى الخشبي، قفز عرفة من المركب ليأخذ بيد العمدة ومن بعده جابر يساعدهما في مرور المرسى، وقف الجميع يتطلعون إلى الأرض فإذا بأرض شراقي على مد البصر قتلها العطش، تغطيها طبقة خفيفة من الرمال والحشائش المتناثرة، أصيب العمدة بالإحباط ولم يعقب جابر.

ظل أولاد عبد الدايم يطوفون في الأرض، يحفرون هنا وهناك، يأخذون عينات يقربونها من أنوفهم، يضعونها في فمهم، ثم قاموا بعمل حفرة على عمق أكبر لمعرفة منسوب المياه.

قال جابر للعمدة:

- هذه الأرض تزيد عن خمسمائة فدان لم قال المأمور أنها ثلاثة مائة؟  
قال العمدة: المأمور ليس متخصصاً ليستطيع تقدير المساحة بالنظر هكذا، ثم إنه قال بأن المساحين بصدد المسح ولم يقل أنهم مسحوها بالفعل، تعال لنجلس أسفل هذه الصفصافة

قال جابر: ادخلني معك شريكاً يا عبد الرحيم

راوغ العمدة في الرد قائلاً: لا تستعجل في القرار يا جابر فلم نسمع رأي أولاد عبد الدايم.

جابر: هل ما زلت عند رأيك بشأن العجرية؟

- نعم

- الخطورة يا عبد الرحيم ليست في أطيافها التي ستسردهم ابنة الرحيمي من تحت يدك بمجرد طلاقها، فالخطر على العمودية، قديمًا كانت العمودية بالوراثة أما الآن فأصبحت بالانتخاب، وقد تركك رجال الحكومة فيها دون انتخاب طالما لم يراحمك فيها أحد.

- تغور العمودية أيضًا، فساكتني بتلك الأرض.

- وهل تستطيع أن تحمي تلك الأرض دون منصب؟ لو لم تكن عمدة من أين كنت تعرف المأمور الذي اصطفاك دون الجميع ليرفعك عاليًا، استيقظ يا عبد الرحيم قبل فوات الأوان.

- ناشز متعالية أريد أن أكسر أنثها حتى لو هخسر كل شيء و..

قاطعه جابر: اسكت اسكت ولد عبد الدايم قادم.

قال العمدة وقلبه يخفق:

- ها يا ولدي طمّني.

- الأرض صالحة للزراعة يا عمدة، ولكنها تريد جهدًا كبيرًا ومالًا أكبر وستجني ثمارها، مقدمة الأرض ستروى من النيل وما خلف الجبل سنحفر لكل عشرة فدادين بئر وساقية؛ فالمياه على مستوى قريب من سطح الأرض.

ارتاحت قسّمات العمدة واطمأن قلبه

وجه العمدة كلامه لعربي: وأنت يا عربي ما رأيك؟

- رأيي من رأيهم يا عمدة، الأرض خصبة ولكنها تحتاج جهدًا كبيرًا.

قال العمدة لعربي: من الآت انت المسؤول عن تلك الأرض، نريد بناء عدة

غرف للإقامة هنا، ونريد عدد كبير من الأجرية، وكميات من البذور

وشتلات الأشجار، وثيران وحمير...

كان الشيخ إبراهيم نموذجاً للعمد المتسلطين، ظهر تسلطه جلياً بعدما استتب له الأمر وقويت شوكته لدى رجال الإدارة خاصة بعدما سرّد اسمه في الأسماء التي سيتم تكريمها من الباشا الكبير محمد علي في القاعة كمكافأة له على انتصاره على العربان وإجبارهم على التوطين تنفيذاً لسياسات الباشا الكبير التي كانت تستهدف توطين العربان للحد من هجومهم الدائم على الفلاحين، بعدها تسلط البنهاوي على الفلاحين تسلط الهواء على النار ضرباً وحبساً ونهباً، كان الشيخ قد قرر التوسع في تربية المواشي فراقبت له قطعة أرض عليها بيت من الطين والخوص بجوار دواره، كانت لورثة أحد الفلاحين، عرض على زوجته ثمناً بخساً فرفضت فأمر برمي متعلقاتهم في الشارع، بعدها ربط المرأة في دواره وانهاled عليها رجاله ضرباً كي تحضر ختم زوجها وحجه البيت، لم تتحمل المرأة فأفصحت عن مكانهما، بعدها طردها من القرية هي وأولادها، فضلاً عن استغلاله للأمية المتفشية في الريف فكثير ما رشى الكاتب العمومي ليكتب شيئاً غير الواقع أو يزور في العقود فيختم البائع ويصم ويتم توثيق العقود بالمحكمة بعدما قبض من العمدة عدداً ونقداً ليكتشف فيما بعد أنه باع للعمدة أرضاً أكبر من المتفق



عليها أو بيتاً غير المتفق عليه، وكانت أطيان المتوفيين أسهل نيلاً بالنسبة له، وخاصة إذا لم يكن لصاحب الأثر المتوفى ورثة أو ترك ورثة قاصرين، فكان العمدة يضع يده على تلك الأطيان ويبقي تكاليفها على اسم الشخص المتوفى، أو يقوم بتزوير مستندات تثبت أن المتوفى قد أسقط له حق الانتفاع بها قبل وفاته وهم لا يعدمون السبل لذلك، كما كان يضع يده على أطيان "المتسحين" الذين يفرون من القرية تخلصاً من الأعباء الضريبية الملقاة على عاتقهم، وبعد موته رد عبد الرحيم المظالم لأهلها فلم يتبق سوى عشرة أفدنة، تنازلت البنات عن إرثهن بكامل الرضا لأخيهم، كن يتفهمن جيداً أنه سندهن الوحيد في قرية لا عائلة لهم فيها ولا مال وحوزة أخوهم لتلك الغدادين تقوي ظهره وبالتالي من ظهورهن، تعمد عبدالرحيم نشر الخبر حتى لا يطرق بابهن طماع، تزوجن جميعاً من أعيان الناحية بجمالهن الفاتن الشبيه بجمال أمهم الشركسية ابنة المحتسب، ظلت تلك العشرة ثابتة غير قابلة للزيادة، وكون تلك العشرة ظلت ثابتة ولم تنقص في هذا نجاح يحسب لعبد الرحيم، ظلت ثابتة رغم مصاريف الدوار الكثيرة، فرجال الحكومة كانوا يحققون أمانيتهم على أعتاب دواره، فالسيد المأمور يحتاج خروفاً لعقيقة ابنته فسرعان ما تفتح حظيرة العمدة بالمجان، والسيد مدير المديرية سيمر بذهبية في النيل من أمام القرية فلا بد للعمدة أن ينتظر وسط النهر ليقدم الولاء والهدايا له، ولكي يستطيع أن يتحمل نفقات وتبعات العمودية اشتغل بتوريد القطن اللازم لورش الأميرية والمواشي الخاصة بالجفالك والمصالح الحكومية، كما كان يعمل كوسيط بين تجار البندر والفلاحين حيث كان يقوم بشراء المحاصيل من الفلاحين بالأجل وعند حصادها يورده لوكالات والشون بالبندر.

( ٣٤ )

بعد صلاة العشاء اجتمع كلاً من العمدة وجابر وعوضين والشيخ محفوظ  
الذي فتح دفتره وشرع في الكتابة  
عقد زواج

- عندك يا شيخ محفوظ، لا يوجد كتب كتاب سوى بعد عقد طلاق  
التفت الجميع للمتكلم فإذا بالمتحدث عثمان الرحيمي  
قال العمدة: اجلس يا شيخ عثمان واستهدى بالله.

- اسمع يا عبد الرحيم، لا داع لتضييع الوقت، هذا هو طلب الجازية جئت  
لأنفذه وهذا قرار لا رجعة فيه.

قال الشيخ محفوظ:

- إذن تكون مختلعة ولس لها حقوق.

رد عثمان: أعفيناه من جميع حقوقنا، على أن يمكننا من إرثها دون مشاكل.  
نظر العمدة للشيخ محفوظ قائلاً:

- اكتب يا شيخ محفوظ ما يريدك كبير الرحايمة.

فتح الشيخ محفوظ دفتره وكتب

طلاق مع ابراء الزمة

سألت الحرمة الجازية ابنة المرحوم بدر الرحيمي، زوجها عبدالرحيم بن ابراهيم البنهاوي أن يطلقها من عصمته طليقة واحدة أولى على براءة ذمته لها مما تستحق عليه من حقوق زوجية وكساي شرعية، من حين زواجه بها إلى تاريخه، أجاب سؤاها وبانت منه بذلك، ولا نكاح منه إلا بعقد جديد بشروطه الشرعية، و صدر بينهما تباري شرعي عام مطلق موسع الألفاظ من الجانبين.

- بعد أن تسجله بالمحكمة أرسل لي نسخة يا شيخ محفوظ

قالها عثمان وانصرف

فتح الشيخ دفتره ثانية وكتب:

عقد زواج

تزوج عبدالرحيم بن المرحوم ابراهيم البنهاوي، بمخطوبته المصونة والجوهرة المكنونة، وهي البكر البالغ، زينة ابنة سالم الغجري، على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وعلى صداق جملته خمسون جنيهاً قبضت كاملة بيد والدها المذكور ووكيلها الشرعي، بشهادة كلاً من جابر البنهاوي وعرفة ابن الزبير الحبشي، المؤدين شهادتهم التأدية الشرعية، وبه شهد في اليوم المبارك آخر شهر جمادي الثاني... والله الموفق



أخذ العمدة زينة لغرفته وحاول الإقتراب منها إلا أنها منعته بشدة، تفهم العمدة أمر خجلها وقرر ألا يستعجل عليها.





( ٣٥ )

جلس عبدالرحيم في الصف الأول مستمعاً لخطبة الشيخ محفوظ الذي قال:  
جُلييب رضي الله عنه

صحابي جليل لا يعرفه الكثير منا؛ لأنه كان فقير الحال، لكنه كان غنياً  
بالإيمان، كان رضي الله عنه حسن الخلق، وكان عزباً لم يتزوج بعد، أحبه  
النبي صلى الله عليه وسلم حباً شديداً.

قال له النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم مداعباً إياه: يا جلييب ألا تتزوج؟  
فقال: يا رسول الله، ومن يزوّجني؟! استنكر السؤال؛ لأنه ليس له أسرة  
معروفة ولا مال ولا جمال، فقال له صلى الله عليه وسلم: أنا أزوّجك يا  
جلييب.

فالتفت جُلييب إلى الرسول، فقال: إذا تجدني كاسداً يا رسول الله، فقال  
الرسول: غير أنك عند الله لست بكاسد.

رفع النبي صلى الله عليه وسلم من معنوياته، ودعمه دعماً نفسياً، فكسر  
الحاجز النفسي بمداعبته والترفيه معه، وتكفل بنفسه صلى الله عليه وسلم  
بتزويجه.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: "زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ"

فَقَالَ: نَعَمْ وَكَرَامَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَنُعَمَّ عَيْنِي.

قَالَ: "إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي".

قَالَ: فَلِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: "لِجَلِيبِيبٍ".

أَبَدَى الرَّجُلُ تَرَاجِعًا وَقَالَ: "أَشَاوِرُ أُمَّهَا".

فَأَتَى أُمَّهَا فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخُطُبُ ابْنَتَكَ.

فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَنُعَمَّةٌ عَيْنِي.

فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يَخُطُبُهَا لِنَفْسِهِ إِنَّمَا يَخُطُبُهَا لِجَلِيبِيبٍ.

فَقَالَتْ: مُسْتَكْرَةٌ أَجَلِيبِيبٍ إِيَّاهُ؟ أَجَلِيبِيبٍ إِيَّاهُ؟ أَجَلِيبِيبٍ إِيَّاهُ؟

لَا، لَعَمْرُ اللَّهِ لَا نَزْوَجُهُ، أَمَا وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا جَلِيبِيًّا؟!

مَنْعَانَهَا مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَالْجَارِيَةِ فِي خَدْرِهَا وَسِتْرِهَا تَسْمَعُ أُمَّهَا، رَفَضْتَهُ

الْأُمَّ؛ لِأَنَّهُمْ مَنْعُوا مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَقْدَرُ فِي وَجْهَةِ نَظَرِهَا.

ظَهَرَ رَفْضُ شَدِيدٍ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّ لِذَلِكَ الشَّابِّ، فَهَمَّ الرَّجُلُ بِالْقِيَامِ لِيُخْبِرَ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَدَمِ رَغْبَتِهِمْ بِقَبُولِ جَلِيبِيبٍ زَوْجًا لِبَتَّتِهِمْ، إِلَّا أَنْ ابْتَتَهُمْ

فَطَنَّتْ لَشَيْءٍ غَابَ عَنْ ذَهْنِ أَبِيهَا، مَنْ الَّذِي يَخُطُبُهَا لِجَلِيبِيبٍ؟ أَجَلِيبِيبٍ

نَفْسُهُ أَمْ النَّبِيِّ؟

إِنْ كَانَ جَلِيبِيًّا بِنَفْسِهِ، فَلَا حَرَجَ فِي رَفْضِهِ لِعَلْمِهِمْ بِعَدَمِ كِفَائَتِهِ، وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي يَخُطُبُ لَهَا، فَهِنَاكَ فِي الْأَمْرِ خَيْرٌ كَثِيرٌ!

سَأَلَتِ الْبِنْتَ أَبِيهَا: مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ؟ فَأَخْبَرَتْهَا أُمَّهَا، فَقَالَتْ: أَتَرُدُّونَ عَلَيَّ

رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَهُ؟ اذْفَعُونِي؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُضِيعْ عَيْنِي، وَقَالَتْ: إِنْ

كَانَ قَدْ رَضِيَ لَكُمْ فَأَنْكِحُوهُ.

مَا أَحْكَمَ عَقْلَ تِلْكَ الْفَتَاةِ وَنَظَرِهَا الثَّاقِبِ فِي الْأَمْرِ!

لم تُشغل تلك الفتاة بالها في مدى وسامة أو دمامة ذلك الشاب، ولا في مدى غناه وفقره، وغير ذلك من مقاييس الناس في الزواج، بل ركزت على جانب مهم فطنت إليه، وأهدى الله عقلها له، وعرفت حقاً أين يكمن معنى السعادة! من الذي يخطب لي، إنه أشرف الخلق وأحكمهم صلى الله عليه وسلم، ويخطب لي من؟

يخطب لي جليبيياً الذي رباه بيديه وتحت عينه وسمعته، وأحبه حتى أصبح قطعة من قلبه صلى الله عليه وسلم، لقد أعاد تأهيله وتكوينه الخلقي والنفسي؛ ليبدأ حياة العظماء، هكذا فكرت. فيكفيها فخراً وشرقاً أن النبي بنفسه هو الذي اختارها عروساً لمن رباه بيديه، فما أحكم عقل تلك الفتاة!

ختم الشيخ محفوظ خطبة الجمعة بالدعاء وأقيمت الصلاة، وبعد الانتهاء تلفت الشيخ محفوظ يمنة ويسرة محاولاً التملص من العمدة بالهروب في وسط الزحام لأنه يعلم جيداً وقع الخطبة عليه، إلا أن العمدة تتبعه من بعيد حتى ظن الشيخ انه أفلت فإذا بالعمدة أخذ ذراع الشيخ تحت إبطه وابتسم قائلاً:

- فتح الله عليك يا شيخ محفوظ، لقد كانت خطبة رائعة.  
قال الشيخ

- اسمع يا عمدة، أنت ليس رسول وعرفة ليس جليبيب، الأمر كان مختلفاً تماماً

- يا شيخ محفوظ: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ" علينا أن نجعل رسول الله قدوة حسنة نقتدي به في أعماله، وأقواله، وهو القائل إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير



قال الشيخ:

- جلييب لم يكن عبداً

قال العمدة:

- عرفة ليس عبداً

- أقصد أبوه

- ماذا يضر الزبير إن كان عبداً، فهو لم يولد عبداً بل كان من كبار قبائل الشايقية بالحبشة وقد سلب رغباً عنه من جيش الباشا الكبير، وهل كان يعيب بلال أنه عبداً، لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى.

- غلبتني يا عمدة

- إذن أعتبر أن خطبة اليوم هي موافقة على الزواج.

- اعتبرها موافقة.

إذن لتأت معي نتغدى وأحكي لك حكاية سلب الزبير كما سمعتها منه.

( ٣٦ )

أصر ناظر القسم على تحصيل الأموال الأميرية تلك المرة من أحد الفلاحين وألا يكتفي بجلده ككل مرة، فسأله عن داره كي يفتشها بنفسه فأشار الفلاح ناحية بيت صغير واطىء السقف مصنوع من الطين والتبن يعلوه كومة من القش، تقدم الناظر ورجاله ناحية البيت وما إن وطئت قدماه عتبة البيت حتى تأفف من الرائحة العطنة، وشدة الحر ليقول متأففاً: كيف تنامون في هذا؟ أجاب الفلاح: ياؤينا من برد الشتاء وفي الليالي الحارة ننام فوق السطح أو على المصطبة أمام الدار.

ظل الناظر يفتش فلم يجد من الأثاث سوى صندوق خشبي يكاد يكون خالٍ إلا من بعض الملابس البالية، وفي الحائط خزانة من طين يسان فيها كل ما يملكه الرجل وامراته، فأمر بفتحها فلم يجد سوى قروش معدودة، في وسط الدار فرن يصنع فيه الخبز، بجوار منه ربطت بقرة هزيلة وعدة دجاجات متناثرة داخل البيت، ما إن سقطت عينا الناظر على البقرة حتى أمر بحلها والاتيان بها إلى الجرن مع الدجاجات، توصل الفلاح وزوجته بأن يترك البقرة التي تساعدتهما في زراعة قراريطهما المعدودة فلم يرق لهما، حفظت الدجاجات داخل قفص سبقه به أحد عساكره إلى بيته حتى لا تتأخر

زوجته في إعداد الغداء، وعن البقرة فبعدهما سأل الصراف عن متأخرات  
الفلاح من المال الميري فأجاب:

- ستون قرشا

أمر الناظر بجزار فحضر في الحال، فأمره أن يقسم البقرة اثني عشر جزءاً وأن  
يحتفظ بالرأس لنفسه نظير جزارته، ثم أجبر جموع الفلاحين بشراء الجزء  
بخمسة قروش فاشتروه في الحال، ثم توريد الستون قرشا إلى الصراف  
وأثبتهما في دفاتره، لم تتوقف زوجة الفلاح عن لطم خديها، بينما صرف  
الفلاح وجهه بعيداً حتى لا يرى ثمرة كده تذبح أمامه وتباع بأقل من نصف  
ثمنها، انصرف الناظر ورجاله، وعاد الفلاح إلى بيته محملاً بعدما سقط  
مغشياً عليه، لم يتحمل القهر فمات بعدها.





( ٣٧ )

جلس العمدة أرضاً أمام طبلية مليئة بأطياب الطعام وبجواره زينة، قال العمدة:

- سعيدة يا زينة؟

- ولم لا أكون سعيدة وقد تزوجت من سيدي وسيد البلد بأكملها، مننت عليّ بأن أسكنتني قصرًا بعدما كنا نسكن الخيام التي لا تقي برد الشتاء ولا حر الصيف، كنا إذا سقط المطر ينحدر السيل فيجرف معه هذه الخيام ومن فيها، وحينما كانت تعوي الريح وتثور الأعاصير تمزقها.  
العمدة: مالي لا أرى أثر ذلك.

قالت زينة بعدما هربت بعينها بعيداً: إن كنت تلمح لعدم تمكيني لك مني فاعذرنى فأنا بكريّة، حينما تقترب مني أستشعر بأن روحي تسحب مني، أنا غجرية أسما فقط، فما نزلت موالد قط، كنت أجلس في خيمتي لا أخرج منها.

العمدة: حياؤك يسرني، ولكني أريد الولد، من أجل هذا تزوجتك.  
زينة: لن يطول الأمر، عدة أيام فقط أمهي نفسي لمثل هذا وسأنجب لك من الأولاد عشرة، ولن يستطيع أن يهينني لمثل هذا سوى جدتي، فهي جدتي وأممي التي ربّنتني، هي تركت القرية مع أبي وعرضين بناء على اتفاقك معهم، أريدها فقط عدة أيام ثم ترحل ثانية.  
العمدة: سأشرع في طلبها.

( ٣٨ )

دائما ما يرى المأمور بأن عبدالرحيم وسد الأمر إلى غير أهله، فليس لأن عربي يجيد الزراعة وفنونها يكون هذا سبباً لأن يجعله العمدة على رأس خمسمائة فدان ناظراً.

يتعجب المأمور ويضرب كفاً بكف قائلاً: كيف لأجري يعمل من طلعة النهار إلى آخره نظير حفتي قمح، يجد نفسه بين يوم وليلة ناظراً على رأس عزبة خمسمائة فدان صحراء خالصة كيف سيتعامل معها، كان يسعك أن تجعله حولي أو مشرف قسم، لا بد أن توسد الأمر لأهله حتى لا يفشل. ويرد عبدالرحيم بأنه يراهن على نجاحه، فترقيته قد تكون سبباً لاستماتته ليثبت للعمدة أنه على قدر المسؤولية، كما أن هناك ضرورة لتقليل النفقات في البداية لضمان الاستمرار في استكمال استصلاح باقي الأفدنة، وراتب عربي ضعيف لا يقارن بنظار العزب.

تم احضار عدد كبير من الأجرية معهم فؤوسهم ومقاطفهم، والعديد من الثيران والحمير، جاء أولاد عبد الدايم ومعهم عدتهم وأخشابهم. شرع العمال في بناء استراحة صغيرة للعمدة ليجلس فيها أثناء زيارته للأبعدية، وبيتاً صغيراً لعربي حتى يستطيع أن يأتي بأسرته، وعدة مخازن

كبيرة لبييت فيها العمال تستخدم فيما بعد كحظائر للحيوانات ومخازن للحبوب، شرع أولاد عبد الدايم في حفر آبار ونصب سواقي في أماكن متفرقة، الثيران منتشرة في الأرض معلق فيها المحاريث وخلف المحاريث الفلاحون، وقف عربي يوجه ويتابع، جلس العمدة في أسفل الصنفاة وبجوار منه عرفة الذي جلس يسجل في دفتره الأموال المنصرفة، ويسجل طلبات عربي التي لا تنتهي.

مزيد من العمال، ومزيد من الثيران، وشتلات الأشجار، مزيد من النساء الذين يصنعون خبزًا ويجهزون الطعام، عجل نذبحه نشحذ به همم العمال...

يرجع العمدة وعرفة إلى القرية يحضرون لعربي متطلباته ويرسلونها له في مراكب.

دارات السواقي تستجلب الماء الذي خرج في بادئ الأمر قليلاً، ليطمأنه ولد عبد الدايم:

- طبعي في الأول يا عمدة.

طلب العمدة أن يركزوا قوتهم في النصف الأول من الأرض المطل على النيل، ولما وجدوا نتاجًا يتوسعوا في استكمال ما خلف الجبل حتى لا يتم تشتيت الجهود.





( ٣٩ )

في الصباح أوقف سالم عربته بالقرب من دوار العمدة، أمسك بمقطف مجدول من خوص النخل به تبين وضعه أمام الحمار، أخذ بيد أمه لينزلها من على العربة، وأشار للغفر كي يأتوا ليحملوا الأقفاص والمقاطف المجدولة من الخوص والممتلئة بالفواكه والخضروات فأجابوه في الحال، تقدم بجسده النحيل مترجلاً حتى وصل إلى الدرجات المفضية إلى المنذرة، لما رآه العمدة أحس بوخز في صدره، ما هذا الذي فعلته في نفسي، كيف لي أن أناسب غجراً مُعدماً سيء السمعة، ماذا لو أنجبت زينة ولدًا فمن المفترض أن هذا جداله، زينه بنت جميلة وخجولة، ليثها كانت منقطة النسب أو على الأقل نسباً مقبولاً، لا يوجد شيء كامل في هذه الدنيا، سلم العمدة على سالم بفتور، وكان يرد على أسئلته باقتصاب.

استأذنت العجوز كي تدخل للعروس فأذن لها، دخلت العجوز فاستقبلتها زينة بالأحضان والترحيب، سحبت العجوز من يدها وصعدت بها إلى الدور العلوي ودخلت بها غرفتها  
قالت العجوز:

- ها خبريني ما حدث؟

- لم يحدث شيء؟
- لم؟
- لم أمكنه مني.
- حتى الآن؟ لم؟
- أيتها العجوز الحمقاء كفي عن أسئلتك الغبية متجاهلة ما تعرفينه.
- ماذا تقولين يا ابنة الحرام؟
- أنتِ تعلمين جيداً أنني لست بكرًا، ولو مكنت العمدة مني لفُضحت.
- لستِ بكرًا؟
- اقتربت زينة من جدتها وصفعتها على وجهها
- تعرفين أنني كنت أنام مع عوضين، وكنت خارج الخيمة تحرسينها لنا  
متظاهرة بأنك لا تعرفين.
- ردت العجوز الصفعة قائلة:
- لم أكن أعلم أن الأمر تطور بينكما إلى هذا، كنت أظن أن الأمر أقصاه  
حضن أو قبلة، فكنت أسكت باعتبار أنكما ستزوجان، يا لك من فاجرة.
- الفاجرة هي أمي يوم أن تركتني طفلة لتهرب مع عشيقها.
- إذن من أين كل هذا الفُجور وأنتِ لم ترها؟
- كفى عن ادعاء الشرف، وأخبريني ماذا أفعل مع هذا الراجل، لو علم بأنني  
لست بكرًا لقتلني ولا دية لي.
- لمَ لم تخبرينا بهذا الأمر قبل أن تورطينا!
- لم تتركالي فرصة وزوجتوني رغماً.
- هل كنا نزوجك عوضين ونعيش في الفقر كامل حياتنا، بالخمسون جنيها  
نستطيع أن نشترى بيتاً يقينا برد الشتاء وحر الصيف بل ونشترى أرضاً.
- سكتت العجوز وهي ترمق الشباك لتنهض بسرعة وتغلق الشباك لينجم  
الإغلاق المفاجئ عن حبس حمامة داخل الغرفة، ارتاحت قسامات العجوز

وأطمأن قلبها، بينما وقفت زينة مذهولة من فعل العجوز والتي تفاجأت بقولها:

- أمسكٍ معي تلك الحمامة.

استشاطت زينة غضبا قائلة: أجننت يا امرأة؟ هل هذا وقته؟  
قالت العجوز: أمسكها معي؛ ففيها خلاصك.

لم تملك زينة مع ذهولها سوى أن ترضخ لطلب العجوز، وبالفعل أمسكتا الحمامة الصغيرة، وما كان من العجوز إلا أن خنقت الحمامة حتى ماتت، فتحت بطنها لتخرج كبدها، بعدها أمسكت بالحمامة، وألقته من الشباك؛ لتسقط فوق سطح بيت عرفة.

قالت العجوز: ستضعين تلك الكبدة داخل مهبلك، ثم تمكنيه منك مع كثير صراخ وصياح، ومع أقل ضغط ستنفجر تلك الكبدة بداخلك وتحدث نزيفا، حينها سيظمن على عرضه، ويقوم عنك.





## (٤٠)

بعد حادثة ذبح البقرة لم يتوان الفلاحون في سداد ما عليهم من أموال أميرية عند قدوم الصراف، ومن لم يستطع السداد يهرع إلى الخواجة يني يقترض منه بالربا.

دائما يقول العمدة: من العجيب أن قاعدة الضريبة، وتقسيمها وجبايتها تحت التصرف الاستبدادي بلا رابطة ولا قيد، وليس لتحصيلها مواعيد محددة، بل يكفي أن يصدر أمر من ناظر المالية إلى المدير بجباية مبلغ ما، فيقسم المدير هذا المبلغ على القرى، ويُنَاط بكل عمدة أن يُحصل القدر المترتب على قريته.

اليوم حضر إلى القرية التجار، ومعهم الجبال لنقل مايشترونه من محاصيل إلى البندر، وقف القباني بجوار ميزان السيبا صعب التحريك، وأخذ يتلاعب في الموازين بتحريض من المشتري بعد ما حصل على نصيبه مقدما مع وعد بوجبة غداء وزجاجة كحول في بورصة يني، يضيف الفلاح جزءا من الماء إلى قطنه؛ ليستعويض بزيادة الوزن التي تحصل بهذه الإضافة عن بعض مايتوقع سرقة منه عند تسليم قطنه للتاجر على أن حيلته هذه مفضوحة لا يخفي أمرها على المشتري الذي يتدرب بها؛ ليتمادى في نهب الفلاح،

فعملية السرقة متبادلة فالفلاحون يعلمون جيدا أن القباني يسرق في الوزن، والمشتري يعلم أن الفلاحين يبلون قطنهم بالماء كي يزن أكثر، ومع ذلك لم يعترض الفلاحون على الوزن، ولم يعترض المشتري على بلل القطن، إنه التعايش السلمي عندما يصل إلى درجة عالية من التعاون المشترك بين الجميع على أساس من التفاهم وتبادل المصالح الاقتصادية والتجارية، حضر أيضا الخواجة يني إلى الجرن، وجلس على كرسي وأمامة كمبيالات الفلاحين، يدخل الفلاح على القباني يزن له قطنه، ثم إلى المشتري يستلم المال، ثم يعود إلى الخواجة يعطيه نصف قيمة الكمبيالات، ثم يطالب بإعادة جدولة المبلغ؛ لأن ثمن قطنه لا يمكن أن يقوم بسد ما عليه، وتوفير ما يحتاج إليه من المال لنفقات السنة القادمة، فيتفق الطرفان على تأجيل جزء من الدين للسنة التالية، إذا دخل الفلاح في تعامل مالي مع المرابي لا يستطيع أن يرفع ذلك الغل الحديدي الذي يضعه المرابي في عنقه؛ فتصبح حاصلات أرضه التي كد في إخراجها طوال سنته هو وزوجته وأولاده لا تكاد تفي بفوائد الدين المترتب عليه.



اضطرت تلك الظروف أن يتعود الفلاح الصبر على الجفوة التي لا تطاق، ولا يتصورها العقل، ولم يخطر بباله المقاومة جهراً؛ لأنها لا تتفق مع طبعه، فلم يبق له من سلاح يدفع به عن نفسه سوى الحيلة والمواربة والمكر اضطرازا منه للخنوع والمسكنة.



## (٤١)

هم غرفة أن يهدم داره، وأن يعيد بناءها؛ لتصلح لزواجه من ابنة محفوظ،  
صعد غرفة أعلى داره للبدء في إزالة القش الذي يعلوها، فوجد حمامة ميتة  
حديثاً ألقيت بعدما أخذت كبديتها، أمسكها غرفة، ونظر ناحية شباك الدوار  
ففهم ما حدث، رمقته زينة دون أن يراها فخفق قلبها، ولطمت خدها.

هدم غرفة داره، وبنائها من جديد من الطوب اللبن المخلوط بالقش وستئها  
بجزوع النخيل وغطاها بالجريد وأعواد الذرة، وقضى أياما يكسوها بالطين  
المعجون بالتب، كما أعاد بناء فرن الخبيز وسط الدار، والذي يُستخدم أيضا  
سريرا للنوم يقي من يعلوه برد الشتاء.

تم الزواج وقررت زينة زيارة العروسين في دارهما يوم صباحيتها، استقبلتها  
صابحة أمه، وأدخلتها إلى غرفة بهانه في الوقت الذي كان غرفة خارج البيت،  
أخذت زينة تهنئ وتبارك، وقدمت للعروس عقدا ذهبيا، فرحت بهانة بالعقد،  
ونفضت؛ كي تحضر لها واجب الضيافة، في الحال أخذت زينة تفتش في  
الغرفة باحثة عما يخصها، لا بد وأن غرفة محتفظ به داخل غرفته، فتحت غرفة  
باب القاعة، فنفضت زينة، واستأذنت للخروج من البيت حرجا، فاقترب  
منها غرفة هامسا: ماتبعثين عنه ليس هنا.



- وهل هذا يهملك في شيء؟
- نعم، كنت أريد أن أطمئن عليك فقط.
- ضحك عرفة قائلاً: يُحكى أن غربال انتقد إبرة؛ لأن بها ثقبًا.
- وهل عروسك كان بها ثقبًا قبل زواجك منها.
- وددت الزانية لو زنت كل النساء.
- أنا زانية؟
- وماذا تسمين مافعلتيه قبل زواجك؟
- كنا مخطوبين وستزوج، إلى أن طلب العمدة يدي، ما استطعت أن أرفض، لو كنت رفضت لسألني سالم عن السبب، وقتلني.
- ضحك عرفة:
- سالم يقتلك إذا عرف السبب؟، كلا، لو عرف السبب لسرحك في الموالد بأجرة، واستفاد منك. اقتربت زينة من عرفة، وقالت: انظر إليّ جيداً يا عرفة، عروسك سوداء عجفاء فاتها قطار الزواج لقبحها، تراني أصبى، وأجمل منها، ماذا لو مكتتك مني، وسترت عليّ.
- على أي سرير ستمكيني.
- على سرير العمدة.
- صنعها عرفة على وجهها قائلاً: لا أدري ما صنع العمدة في حياته ليبتلى بك.
- سأوقع بينك وبين العمدة، وأخبره بأنك راودتني عن نفسي.
- لن تستطيعي لأنني لما وجدت الحمامة تركتها عند جابر، وكنت سأخبر العمدة بما حدث لو لا أن جابر نهاني عن ذلك.
- ماذا أفعل؟ كي لا تفضحوني.
- توبي واندمي، فما سكتنا عنك إلا خوفاً على العمدة من شماته الرحيمة به، فبعد أن طلق ابنة الرحيمي من أجلك أصبح المتربصون به كثير.

(٤٢)

أطلق المأمور أيدي رجال المساحة بعد ما شغلهم بمواقع أخرى لمدة طويلة، حضروا إلى الأبعدية لمسحها، ومن ثم ضمها إلى أراضي الخديوي في الوقت وضع عبد الرحيم يده على الأرض، وفعل ما تم الاتفاق عليه مع المأمور، بما يترتب علي وضع اليد من زراعة، وبيوت وأشجار، وسكان!، فوجئ المساحون بأن الأرض عامرة، وليست أرضاً بوراً، وينطبق عليها اشتراطات وضع اليد، عادوا إلى المأمور، فأخبرهم بأن الأرض بالفعل تحت يد عبد الرحيم عمدة كفر البقر وضع يده عليها بموجب وثيقة مسجلة كان قد دسها في دفاتر المديرية بواسطة بعض رجاله، أخرجت اللجنة تقاسيط تثبت فيها حيازة عبد الرحيم للأرض وبدءاً من العام القادم عليه دفع المال الميري المقدر بعشر ريعيها.

حُفرت الآبار، ونُصبت السواقي، وأقيمت الشواذيف لرفع مياه النيل إلى الأبعدية، فجرى الماء في كل قنواتها، الأمر يتطلب عددًا كبيرًا من العمال مُستنفرون لاستصلاح تلك الأرض والاعتناء بها، ومع قلة السيولة المادية في يد العمدة اضطر أن يتعامل مع العمال بنظام المناب، وهو أن يعمل العمال في أرضه بالحصص الربع أو الخمس أو السدس من جميع حاصلات الأرض تبعًا لخصب الأرض التي يزرعونها، إلا أنه في نهاية العام وجد العمال أنفسهم لا يقبضون من هذا الثمن شيئًا، ولأن كل عامل ظل يستجر من مخازن العمدة كل ما يحتاج إليه طوال العام من كسوة وغذاء وعلف لبهائمه، وهذا التسلف يرصد في الدفاتر ليُخصم في نهاية العام من ريع القطن، ومع تلاعب عربي بواسطة الباشكاتب في الدفاتر لحساب نفسه أدى إلى خروج العمال مديونين، فالعامل الذي ترك قريته وذهب إلى أبعديّة في الصحراء أملًا في أن يدخر مالا آخر العام؛ وجد العامل نفسه شبيه بالرقيق الذين يعملون لتفادي الموت جوعًا، مما جعلهم يتركون الأرض ويعودون إلى قراهم، مما اضطر العمدة إلى تغيير نظام العمل معهم، وهو أن يأتي كل عامل بأسرته إلى الأبعديّة ويستقرون فيها، ويؤجر لهم العمدة قطعة أرض بنصف



ثمناها، على أن تعمل كل الأسرة في أرض العمدة نظير أجر يومي لا يتغير طول العام، وهو ثلاثة قروش تخصص من الإيجار المطلوب، ومن المدون الأخرى وفي آخر العام يتم تصفية الحساب طبقاً لما هو مدون في الدفاتر، وإن كان هذا الحل مرضياً للعمال محفزاً لترك قراهم، إلا أنه كلف العمدة أموالاً لبناء بيوت العمال رغم حقارتها، ويجب أن تكون مخازن العمدة مفتوحة ممتلئة؛ كي يجبر منها تلك الأسر طوال العام، مما اضطر العمدة إلى اقتراض مبلغ كبير من الخواجة يني، رفض فيه الخواجة الكمبيالات، بل طلب رهن الأرض؛ مما اضطر العمدة أن يرضخ لطلبه حتى لا يخسر كل شيء، ورغم أن هذا النظام الجديد الذي اتبعه العمدة مع العمال أفضل بالنسبة لهم، إلا أنه لم يرتق بتتاج الأرض وذلك لأن الفلاح لا يشارك العمدة في الناتج، وبالتالي لا يهتم أمرها في شيء، فهو لا يعمل بنشاط مفرطاً في واجباته، وفي هذه الطريقة كان يتوجب تعيين العديد من المستخدمين لا عمل لديهم سوى المراقبة إلا أن عربي تراخي في ذلك معللاً أمام العمدة بترشيد النفقات، والحقيقة أن هذا التراخي تم بعدما تمت رشوته من عثمان وحربي، فكان الناتج آخر العام لا يفي بالمصروفات، ولا سداد ديون يني الذي أخذ يجدول المبالغ، ويراكم الديون بفوائد باهظة.

نامت زينة في حجر جدتها التي أخذت تسرد لها أساطير وحكايات الأولين المعروفة لدى العجر، فقالت: عندما سُلم يسوع بن مريم إلى الرومان لصلبه، كلف إمبراطور روما جنديان بإحضار أربعة مسامير ضخمة، فذهب الجنود إلى الحداد اليهودي لصناعة المسامير، لكن الحداد رفض فقتلوه، ثم ذهبوا إلى حداد من سوريا، فرفض صناعة المسامير عندما علم إنها لصلب يسوع فقتلوه، وفي طريقهم قابلوا حدادًا من العجر أخذ منهم النقود، ثم بدأ في صناعة المسامير، وعند البداية في المسمار الرابع علم أنها لصلب اليسوع، ولكن العجري أتم صنعه، فظل المسمار متوهجًا رغم صب الماء عليه وأضاء الصحراء، ففر العجري هاربًا، وظل المسمار يطارده في كل مكان، ويوجد هذا المسمار في خيام كل من هم من نسل هذا الشخص.

قالت زينة: لا بد، وأنا من نسل هذا الحداد.

ضحكت العجوز ولم تعقب

قالت زينة: احكي لي قصة أخرى.

قالت العجوز: سأحكي لك قصة ولا تحكيها لأبيك فهو لا يتذكر منها شيء، فقد كان صغيراً.

قالت: زينة أعدك.

قالت العجوز: بينما نحن في أحد البلاد اذ لجئت إلينا طفلة صغيرة هاربة من جيروت زوجة أبيها، وكان سالم أبوك حينها ولد صغير يكبرها بقليل، وعند الترحال دسها داخل أحد الصناديق فتفاجأنا بما لما بعدنا، قررنا أن نرجعها إلى أهلها إلا أن أبيك رفض بشدة وهددنا بالهرب خلفها، فتركناها معنا، تعلق بها أبوك وكان مصرًا على الزواج منها إلا أنها كانت تأتي، فرغم أنها نشأت بيننا إلا أنها لم تكن تُحبنا، إلى أن أتينا إلى هذه القرية قديمًا وكان فيها العمدة الكبير والد عبدالرحيم وحينها كانت قد كبرت واستوت صببة، حاول أبوك التعدي عليها ليكسر عينها وتقبل بالزواج منه إلا أنها تملصت منه وقررت الاستجداد بعمدة هذه القرية، فضمها العمدة إلى بيته خادمة، وسمعت بعد ذلك أنه زوجها من أحد عبيده، وشدد علينا بعدم الإقتراب من هذه القرية وحرمها علينا إلى أن يموت، كانت هذه المرأة تسمى صابحة، اذا فتحتي هذا الشباك ستحي بيتها أسفل الشبك.

- تقصدين صابحة أم عرفة؟

- نعم هي، لما جئت إلى هنا عرفتني فشاحت بوجهها عني ولم أحاول الإقتراب منها.

جلس عبد الرحيم يحكي للشيخ محفوظ قصة سلب الزبير من بلاد الجنوب:

منذ أكثر من أربعين عاما كان الباشا الكبير يأمل في امتلاك النوبة؛ لاستخراج الذهب والماس من مناجمها بعدما وصل اليه أن دنقلة، وسنار، وكردفان، ودارفور تحوي الكثير منهما، كما كان يرغب في تجنيد جنود من السودانيين لما عُرف عنهم الطاعة والصبر والقناعة والبسالة، تم تجهيز ثلاثة آلاف قارب لحمل أكثر من أربعة آلاف جندي من المشاة، بالإضافة إلى ألف فارس منهم خمسمائة من عربان العبابدة، وعشرة مدافع، والكثير من الذخائر والأمتعة، وترأس الحملة إسماعيل باشا أصغر أبناء محمد علي، لم يكن إسماعيل الخديوي الحالي، فالحالي حفيده، اجتاز بالحملة الشلالين الأول والثاني، واخترق دنقلة دون أن يجد مقاومة، اغتتم المصريون هذه الفرصة للاستراحة على ضفاف النيل في مزارع الذرة القريبة من كورتى، وأرسل الأمير إلى النوبيين من يدعوهم إلى السلم، وإلقاء السلاح، وتسليم الخيل، والاقتصار على زراعة الأرض، ودفع ضريبة من المال، فوافق الشايقية على دفع الضريبة، لكنهم أبو التخلي عن سلاحهم وخيلهم، وقالوا



إنهم يفضلون القتال على الرضا بهذا الطلب، أبى إسماعيل إلا أن يفرض عليهم إرادته، ولو لجأ إلى القوة في تنفيذها، فسير إليهم بادي الأمر فصيلة مؤلفة من مائة بدوي للاستطلاع، لكنها ما كادت تتحرك من مكانها حتى أحاط بها الشايقية وقتلتهم جميعاً، بعدها شوهد من ناحية الشرق جيش ضخم من الشايقيين الرجالة، والخيالة والهجانة مسلحين بالسيوف والرماح، فتعالت إلى عنان السماء غمغمة أصوات حادة، وحمي وطيس القتال الذي ظل بين الطرفين سجالاً، وكانت تحت قيادة عابدين كاشف فرقة احتياطية مؤلفة من مئتي بدوي، فحمل على الشايقيين ثلاث حملات صادقة أحدثت بالأخيرة منها ثغرة في صفوفهم، وهنا أدركه إسماعيل بمدده، وضم جهوده إلى جهوده، وانبرى هو وعابدين بك في طليعة رجالهما لصد صدمات الشايقيين، فلم تمض على القتال ثلاث ساعات؛ حتى تشتت شمل الشايقية، ولم يستطع جيش إسماعيل أن يجزو رقابهم؛ لأن الليل كان قد زحف بكتائبه فنجوا بأنفسهم في ظلامه الداجي، وحملت مشاة الشايقيين الشطر الأكبر من عبء الصدمة وكانوا خليطاً من الفلاحين اتخذهم المحاربون سياجاً لهم وجنة؛ لأنهم لم يكن معهم من السلاح سوى الوهم الذي ألقاه المشعوذون في صدورهم بأن الرصاص لن ينال صادق الإيمان، فكنت تراهم لاستقرار هذه العقيدة في أخلادهم يعرضون صدورهم لوابل الرصاص، بل وكان كل محارب منهم يحمل معه فيما عدا هذه العقيدة الراسخة قطعة حبل باعتقاد أن أعداءهم سيسلمون إليهم بأنفسهم، ويمدون أيديهم ليشدوا وثاقهم بها، بل وبلغ ببعضهم أنهم بما عملوه من السحر وحملوه من الطلاسم أغراهم المشعوذون بأنهم صاروا لا تراهم العيون، وإن كانوا هم يرون غيرهم، لهذا لم تكد المعركة تنتهي حتى قصد لفيف منهم إلى خيمة إسماعيل باشا يبغون أذاه معتقدين أنهم مستخفون عن الأنظار، فلما أبصر الحراس بهم، وأيقنوا إنهم من الأعداء قبضوا عليهم

ومنعوهم من اتمام قصدهم، أحرقت بلدة كورقي عاصمة الشايقية، وصار  
عاليها سافلها، وما أمسك جندي بيده أذن شايقي إلا ليصلمها بخنجره؛ حتى  
بلغ ما أرسله إسماعيل من الأذان إلى والده في زكوية واحدة سبعمائة  
وعشرين أذنا؛ ليبرهن لوالده على تقدمه في فتوح البلد، وما استتب الأمر  
لإسماعيل بكورقي؛ حتى أمعن جنوده في إفتار البلاد من سكانها بما كانوا  
يأخذونه من الأسرى، ويسترقونه من العبيد، وكان الزبير ممن تم سلبه.



## (٤٦)

أرخصى الليل سدله على الحقول المترامية إلا من أضواء مهزوزة على مرأى البصر، من بين الزراعات بما فيها من أزيز حشرات مزعج خرج رجل بحذر يؤخر رجل ويقدم أخرى، يفرك يديه من شدة برد قارص غلف الناحية يومها، تلفت يمنا ويسره ثم خرج، ولج بحذر إلى الطريق الذي يليه النهر بعد ما غطى رأسه بعباءة صوف؛ حتى لا يراه أحد، رمق بعينه مركبًا يسير في النهر يركبه العمدة وعرفة وأحد العمال، وكانوا في طريقهم إلى الأبعدية. وقف الرجل على الجسر ينادي بصوت جهوري: ارجع يا عمدة فزينة مريضة جدًا، وتكاد تموت.

قالها، واختفى.

قال العمدة لعرفة: أسمعت؟

عرفة: نعم، أين ذهب القائل؟

العمدة: لا بد لنا أن نرجع.

عادوا إلى الدوار في وضح، وطلب العمدة من عرفة أن ينتظره أسفل البيت لربما يحتاجه، فتح العمدة باب الدوار، وصعد للدور العلوي، وما إن اقترب من باب الغرفة؛ حتى سمع صوت ضحكات داخل الغرفة، وصوت راجل



يخالط صوت زينة، أمسك عبدالرحيم بمقبض الباب ودفعه فجأة، فإذا بعوضين في حضن زينة يتعانقان، هم عوضين بالقفز من الشباك؛ لينهره العمدة شاهراً مسدسه.

- ظل مكانك، وإلا قتلتك، فلن تتمكن من الهرب من الشباك، فعليه قضبان حديد.

ظل العمدة مصوباً مسدسه ناحيتهما طالبا منه العودة إلى السرير، واقتراب من الشباك منادياً على عرفة الذي لبي النداء في الحال، أخبره العمدة أن يصعد منفرداً، ويغلق باب الدوار الرئيس جيداً.

ظن عرفة أن العمدة سيفعل به سوءاً بتحريض من زينة، ظل رأسه يفكر ويعد في الردود الي أن قطع سيل هذا الأفكار، حينما دخل عرفة من باب الغرفة؛ ليجد عوضين عارياً، وزينة التي غطت نفسها بلحاف السرير.

قال العمدة:

- تعال يا عرفة؛ لترى العجربة التي رحمتها من سكنى الخيام والطواف بالبلاد، وأسكتها قصرًا.

- كلنا نصحنك يا عمدة، بالأ تترك ابنة الأصول لتزوج هذه الزانية التي كنت أعرف منذ يوم زفافكما أنها ليست بكرا، وسكتنا عنها خوفاً من أن يشمت بك الرحيمة، وأملا في توبتها، ولكن ذيل الكلب لن ينعدل.

قال العمدة في ذهول: كيف هذا؟

- في اليوم الثاني لدخلك بها وجدت على سطح بيتي حمامة مشقوق بطنها، ومأخوذ منها كبدها فقط، وأحضرت جابر الذي نهاني أن أخبرك بما حدث خوفاً من ردة فعلك ومن الفضيحة التي قد تلحق بالدوار.

- كل هذا، وأنا لا أعرف يا عرفة، اربط هذا الكلب، والله لأدفنه حياً.

اقتراب عرفة منه، وأخذ يربطه بحبال

- قالت زينة بصوت عال: إذا نال الزنا منا، فقد نال منكما أيضاً.

- حملق كالا من العمدة وعرفة فيها  
- نظرت إلى العمدة قائلة:  
- أبوك الذي صدعت رؤوسنا ببطولاته، فقد زني بصباحة التي حملت بعرفة،  
ولما خافت أن يفتضح أمرها زوجها من الزبير.  
لم يرد العمدة، ولا عرفة  
أكملت زينة: آتيا بصباحة، واسألاها.  
قال العمدة: ما هذا اليوم الأسود، انزل يا عرفة، واتني بصباحة.  
قال عرفة: لا تسمع لها يا عمدة، هي تريد أن تشغلنا حتى تبرد نارك، هي تضيع  
في الوقت لتستطيع الفكاك.  
- لن تتمكن فقط حسمت قراري بشأنهما، اذهب الآن، واتني بصباحة،  
واصرف الغفر من أمام الدوار.



(٤٧)

عجيب أمر سيدي العمدة كلما ازداد بياض شعره وكبر سنه، زادت هيئته في قلوب الناس، رجل مهيب الطلعة، وقور الملامح، الناس يهابونه دائما، ومهما قسى عليهم يحبونه، ولما لا وهو مخلصهم من سطو العربان.. هكذا يقول الزبير دائما عن سيده الشيخ إبراهيم.

خرج العمدة الكبير بوجه عريض أبيض مشربا بحمره، وقد غزا الشيب رأسه وحاجبيه ولحيته، متوكئا على عصاه من الباب المؤدي إلى المنذرة، وقد تلفح بشال كشميري الذي أهده له الباشا الكبير.

لما رمقه عبد الرحيم قادمًا، وقد كان شابًا، انتصب قائمًا، وأخذ بيده حتى جلس بعد جهد على إحدى الكنبات، فأشار العمدة لعبد الرحيم فجلس مقابلا له، ظل العمدة متوكئا بكلتا يديه على رأس عصاه، وسند ذقنه إلى ظهري يديه الذين برزت منهما عروق الدماء الخضراء، وأخذ يضيق عينيه موجها نظره إلى عبد الرحيم، وبسمة ترف على جانبي فمه، وقال:

- دنا الرحيل، والموت على أعتاب غرفتي يقصدني.

- أظال الله عمرك يا أبي، فأنت الظهر والسند.



سكت العمدة قليلا، ثم قال:

- كيف ترى أباك يا عبد الرحيم؟

سكت عبد الرحيم، ولم يعقب.

- آخر مرة كلفتك فيها بشيء كان يوم التخطيط لمعركة الجرن، يوم أن طلبت منك أن تستفز أولاد الوافي؛ كي يأتوا إلي هاهنا، من بعدها لاحظت أنك تتحاشى الجلوس معي تخشى أن أكلفك بشيء، فاستبدلناك بالزبير عبدنا. - لأنه بعد أن انتصرت في معركة الجرن دانت لك الدنيا، واستقر كرسيك، ف...

سكت عبد الرحيم ولم يكمل، فأكمل العمدة قائلاً:

- فظلمت، هكذا تريد أن تقول، أنا أستشعر في قلبك لين استقيته من أمك، رغم أن أبها لم يكن كذلك، سبحانه الله الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وها أنا ذا على مشارف الموت وأنصحك بنصيحة، لينك هذا قد ينفعك إذا كنت شخصا عاديا، حينها سيحبك الجميع، أما لو جلست على كرسي منصب، فلن يذيقك لينك سوى الوبال، سيطمع فيك الجميع، ويتطاول عليك أقرب الناس إليك إما طمعا في كرسيك أو حقدًا يأكل قلوبهم. - ومظالم الناس يا أبي.

- إذا كنت تعتقد أني ظالم، فرد المظالم بعد موتي قبل أن تقسم التركة.

- ولما لا تردها في حياتك.

- إذا تملك الجبروت من قلبك، فلن يردعه حتى الموت، وإن كان على أعتاب بابك، فأنا أردت استرهاب الناس؛ حتى تكون هناك قوة يخشاها الناس، فتستقيم أمورهم، ولا يكون استرهابهم سوى بالتعالي، وإذلالهم بالقهر والقوة، وسلب الأموال، حينها سيكونون كالغنم درا وطاعة، وكالكلاب تذبلا وتملقا، هم يستحقون هذا يا ولدي، فالمستبد يتجاوز الحد

ما لم ير حاجزًا من حديد، ولو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفًا لما قدم على الظلم.

قال عبد الرحيم: هذا ليس مبررًا للنظلم.

- إن ربك حكم عدل لا يظلم أحدا، فلا يولي المستبد إلا على المستبدين، كما تكونون يولي عليكم، وتذكر جيدًا يوم أن أموت هم من سيترحمون علي؛ لأنهم في الأصل مستبدون إلا أن الفرصة لم تأتهم، فالكل شريف حتى تأتي العاهرة.

دخل عرفة مهرولا إلى العمدة، وقد كان طفلا صغيرا، احتضنه العمدة، وأخذ يقبله، وأخرج من جيبه قروشًا، وأعطها له، ثم وجه كلامه إلى عبد الرحيم:

- أوصيك بعرفة يا عبد الرحيم، اعتبره أخاك الصغير، فما أحببت أحدا بعدك كما أحببته، ولا تطمع في الفدان الذي كتبه للزبير، فهو حقه ولولده عرفة من بعده.



(٤٨)

جلست صاحبة على ركبتيها أمام ماجور فخاري كبير تقلب العجين بكلتا يديها، ولما خارت قواها قامت عنه بعدما غطته، تحاملت في مشيها إلى صحن الدار المفتوح إلى السماء، فيه نخلة تضرب بشواشيها عنان السماء، وقد تدلى منها عراجين البلح التي تشبه عنقود عنب كبير، لما اقتربت صاحبة من الطيور ازدحموا حولها، فزحفت يديها أعلى الفرن لتمسك حزمة برسيم صغيرة بيد وبالأخرى منجلاً حديدياً، جلست إلى الفرن وأراحت ظهرها له، وأخذت تجز بالمنجل حزمة البرسيم لتسقط في حجرها نتفا صغيرة، ثم تلقي تلك النتف لطيورها، منذ الصباح الغربان تنعق، والقلق يضرب نياط قلبها ولا تدري لما، فيومها رتيب ككل يوم لا جديد فيه، تعالت طرقات سريعة ثقيلة على الباب، تحاملت على نفسها حتى وصلت إلى الباب وقلبها يكاد يقفز من صدرها، وما إن فتحت حتى سحبها عرفة من يدها دون كلام، وصعد بها إلى الدوار ألقي العمدة على مسامعها ماقالته زينة، تلجلجت صاحبه قائلة:

- كذبت، ورب الكعبة.



ارتاحت قسمت العمدة واطمان قلبه، إلا أنه عاد يخفق ثانية لما أكملت صابحة:

- ليس الأمر كما قالت، ولكن الأمر لما كنت أطوف مع هؤلاء العجور في الموالد، وتخلفت عنهم في هذه القرية، وجئت إلى العمدة الكبير مستنجدة من سالم الذي حاول الاعتداء علي؛ كي يكسر عيني لأقبل بالزواج منه، فضمني العمدة إلى الدوار خادمة، ونهاهم عن العودة إلى القرية، وإلا كان الموت مصيرهم، راودني العمدة عن نفسي عدة مرات، وكنت أرفض قائلة له: لا سبيل لي سوى بالحلال، وكان لا يستطيع أن يجمع بيني وبين ابنة المحتسب، فابتنى لي بيتا بجوار الدوار حتى أكون على مرأى منه مدعياً أنه بناه للزبير؛ كي يزوج فيه، وكتب علي عقداً بشهادة الزبير وجابر، ثم أشاع أنه زوجني من الزبير، وعقد الزواج موجود وجابر موجود أيضاً، وكان الزبير يعيش معي في الدار، ولا ضير منه فقد كان مجرباً (مقطوع الذكر)، وكما هو معلوم لديكم أن العبد المجرب كان سعره أعلى من العبد السليم؛ لذا استبقاه العمدة ولم يبيعه، وكان العمدة يأتيني بدعوى زيارة الزبير. والسهر معه، بل أنه أعتقه حتى يُبرر أمام الناس زيارته المستمرة له، ولما حملت في عرفة كتبناه باسم الزبير، ولكي يضمن للمولود حقه كتب للزبير فداناً باعتبار أن عرفة الوريث الوحيد للزبير، وبالتالي سيؤول إليه، فدان واحد رغم أن حقه أكثر من ذلك حتى لا يثير غضب ابنة المحتسب، ولا يثير الشكوك.

هبط الكلام كالصاعقة على العمدة وعرفة، وأكملت صابحة:

- عرفة أخوك يا عمدة، وعقد الزواج موجود، وجابر أيضاً موجود.

لم يشكك العمدة في رواية صابحة، وصدقها كاملة دون أن يطلب بمجيء جابر؛ حيث اتضح له الآن، لماذا أصر جابر يوم أن مات الزبير أن يدخل ويغسله وحده، ورفض دخول عبد الرحيم معه، وأغلق في وجهه الباب، رغم

أنه يوم أن مات العمدة الكبير لم يشارك جابر في غسله، ولما سأل عبد الرحيم جابر عن إصراره بتغسيل الزبير وحده قال:

- هذه كانت وصية أبيك.

فضلا عن وصية العمدة الكبير الدائمة لعبد الرحيم بالإحسان لعرفة، وأن يعتبره أخاه، وألا ينازعه الفدان الذي كتبه له.

وبعد صمت من الجميع في العرفة قال عبد الرحيم:

- أصدقك يا صاحبة، وأحضري لي عقد الزواج، وعرفة من اليوم هو أخي، وسأعلن هذا الأمر على الملأ، اذهبي وما رأيته بعينك الآن كأن لم يحدث. أو ماتت صاحبة موافقة، وانصرفت.

قال العمدة لعرفة: هات هذا الولد واصحبي.

وأثناء جر عرفة لعوضين

قالت زينة: أنا حامل يا عمدة.

تجمد الجميع زمنا، ثم لم يملك العمدة نفسه غاضبا، وصوب مسدسه، ناحية زينة، وهم بقتلها لولا عرفة الذي هجم على العمدة، وسلبه مسدسه. قاومه العمدة قائلا: اتركني يا عرفة أقتلها.

- اصبر يا عمدة لربما يكون ولدك حقا، فتكون قتلته بيدك بعد طول انتظار.

- ماذا تقول يا مجنون أنت، كيف لي أن أصدق تلك الزانية؟

- هناك احتمال، ولو ضعيف أن يكون ولدك، اتركها الآن، ودعنا نتخلص

من هذا الوغد، واترك أمرها الآن حتى نتفرغ لها.

أغلق العمدة الباب على زينة من الخارج، وقال لعرفة:

سندهب به إلى الطاحونة.

## (٤٩)

كان والد الشيخ إبراهيم من كبار تجار المحروسة، كانت تربطه بالمماليك علاقة قوية على أثرها عرضوا عليه ترك المحروسة، والانتقال إلى الريف كملتزم، لمجموعة قرى، فاستقر في قرية كوم البقر وورثه ابنه إبراهيم الذي انتقل إليه الالتزام بالتبعية.



والالتزام هو جباية الأموال والضرائب من عامة الشعب وقد تولى الالتزام طبقة من الأثرياء يتعهدون جسع الضرائب من الفلاحين، يتم الالتزام عن طريق المزايدة العلنية من خلال قيام أحد الأغنياء بدفع مبالغ مالية مقدماً للدولة مقابل تحصيله للضرائب من المواطنين وكان الملتزم يسترد تلك الضرائب التي دفعها مقدماً من جموع المواطنين الذين يقعون في دائرة التزامه



(٥٠)

في الطاحون قال العمدة لعوضين:

- ما الذي حملك على هذا؟

- هي كانت لي، وأنت أخذتها بمالك.

- طالما أخذتها بمالي إذن هي ملكي، وقد تعديت على حرمتي، وعلى

سريري.

- لم أتعد عليها، بل جئت بموافقتها، بل هي من حملتني على ذلك، فهي

تراك أسداً عجوزاً تملك مالا كثيراً و فقط، وهي شابة وجميلة، ولها رغبات.

غضب العمدة من الرد، فأمسك برأس عوضين، وأخذ يضربه في قادوس

الطحين ضربات متتالية دون انقطاع حتى فاضت روجه.

في الصباح اجتمع الناس بالقرب من الطاحون تلفحهم حرارة الشمس

ووهج الفيض، يتهايمون ولا يكفون عن نسج الخيالات حول مقتل عامل

الطاحون، وقد استظل بعضهم في ظل النخيل المجاور للطاحونة، على

مقربة منهم أخرج شوقي نوار بك مأمور المركز، وهو أعلى فرسه منديلاً

جفف به عرقه، وأمر عساكره أن يزيحوا الناس بعيداً، انتحى العمدة جانباً

بالمأمور، وتحدثنا: ماذا حدث يا عمدة؟، هناك من كان يراقبك، وبلغنا أثناء قتلك له؛ لذا حضرنا في الحال دون إشارة منك، أعداؤك كثر يا عمدة، ومقربون لك.

من أبلغكم.

جابر بنفسه.

صعق العمدة، وعرفة.

قال عرفة: لا بد، وأنه الذي نادانا من على الجسر؛ لنعود ليلتها مخبرنا بمرض زينة، نعم والله لقد كان صوته مهما حاول تغييره، فقد كان يراقب الدوار، ويعرف أن عوضين بالداخل، وراقبنا حتى وصلنا للطاحونة يريد أن يخلص منا؛ فبلغ عنا.

قال العمدة: لا يريد أن ينسى لي أي رفضت أن أشاركه في الأبعدية.

ثم نظر العمدة للمأمور، وقال: رأيت القتل في غرفة نومي مع العجيرية، ماذا كان علي أن أفعل.

خيرًا فعلت، لا تقلق سأنهي لك الأمر الآن، إلا أن هناك أمرا يشغلني، قد مكنتك من الأبعدية، ولم تمكني من العشرة فدادين.

خلصني من هذا الأمر، ولك العشرة بعد.

كلا، الآن يا عمدة.

رضخ العمدة لكلام المأمور الذي أخرج عقد بيع بتسعة أفدنة كان قد جهزه، وقع عليه العمدة، وعقدا آخر بفدانا وقع عليه عرفة.

جلست العجوز جانبًا، تذرّف الدمع، وتلطم الخد، وتهيل تراب الأرض على رأسها، ظلت خيوط دموعها تنساب على وجنتيها المليئة بالندوب والتجاعيد حتى جفت تمامًا، قام الرجل متحاملا على نفسه، والهوا جس تفترس عقله بلا هوادة، وهو يقترب من أمه العجوز يحثها على التماسك، ويلقنها ما ستقوله أمام جمع الحكومة، كما طلب منه.

قبض الكاتب على طربوشه بيد، وراح يجفف صلته بمنديل باليد الأخرى،  
وشرع يخط بقلمه ما يمليه عليه الأمور:

إنه في يوم تاريخه.. قد تلقينا إشارة من عمدة قرية كوم البقر بواسطة أحد  
خفرائه، تفيد بأن المذكور بالإشارة المرفقة قد مات أثناء تأدية عمله في  
الطاحون الكائن بأطراف القرية والمملوك لورثة الشيخ إبراهيم  
البنهاوي.....





امتطي كلا من عبدالرحيم وعرفة فرسين، وسارا متوازيين يدبون دبا وتيدا صامتين في طريقهما إلى البندر، ومن ثم إلى محطة القطار. لم يكف الناس عن النظر إليهما بعد ما تم إعلان عرفة أختا. لاح في الأفق عدة خيول وحمير تثير التراب، قال العمدة: إنه ناظر القسم قادمًا إلى القرية، فاليوم هو جمع المال الميري كان علي أن أنتظره، سر بنا من طريق آخر، وصلا إلى الرصيف الذي يربض أمامه القطار، بعد ما تركا فرسيهما بالخارج، أمسك عرفة بالشنطة، بينما قطع العمدة التذكرة، ولما هم بالركوب اندفع عرفة في حضنه، وقد ذرفت عيناه دمعا، وقال:

خد بالك من نفسك يا عبد الرحيم يا أخويا، أنا مليش غيرك في الدنيا دي كلها.

ابتسم العمدة، واحتضنه بقوة، وهو يضمه لصدره، ويربت ظهره:

فيه إيه يا واد مالك، دي المحروسة مسافة السكة.

قال عرفة: قولتلك آتي معك.

العمدة: من الآن، وصاعدا لا يمكن أن نجتمع نحن الاثنان بعيدا عن القرية. أمسك عرفة بالشنطة، وأدخلها القطار، ثم نزل.

أطلق القطار زمجرة عالية، ونفت دخانا كثيفا، ثم انطلق كوحش ضارٍ ينهب الأرض، وانطلق بعدما صفر له ناظر المحطة، أطل العمدة من شباك القطار قائلا:

خذ بالك من البنت زينة، إياك تهرب يا عرفة.

وصل القطار إلى محطة باب الحديد بعد العشاء، تسابق الجميع إلى الهبوط من عربة القطار، بينما ظل عبد الرحيم مكانه حتى نزل الجميع، فأمسك حقيبته الحديدية، ونزل من عربته؛ ليناقضها أحد حفاة المحطة؛ ليحملها عنه قائلا له:

- حمدا لله على السلامة يا عمدة، على فين إن شاء الله؟

انشغل العمدة بالنظر إلى المحطة متعجبا من الأعمدة الحديدية والتغطية العالية، والأرصفة التي عليها القطارات، وإنارات الغاز التي تضيء المحطة، أناس مسافرون وآخرون قادمون، أحضان وقبلات ودموع ووداع.

أعاد عليه حامل الحقيبة السؤال:

حمدا لله على السلامة يا عمدة. على فين إن شاء الله؟

ليجيب العمدة: من أين عرفت أني عمدة؟

ضحك الرجل: ثيابك تدل إما أنك عمدة أو من الأعيان.

أخذه حامل الحقيقة خارج المحطة إلى أحد الحناطير الموجودة بميدان باب الحديد، أخرج العمدة من حافظته بارة وأعطاهم له، ركب العمدة الحنطور طالبا من الحوذي الذهاب إلى الأزهر، التقط الحوذي كرباجه، ومط رقبتة، وأخذ بلهب ظهر فرسه بضربات قاسية يستحث بها خطاه، ويجعله يضاعف من سرعته قاصدا ثمن الجمالية، ظل العمدة يتلفت يمينا ويسارا منبهرا بالشوارع العريضة النظيفة، وقد صفت على جانبيها أشجار السنط والجميز المعتنى بهما، وأرصفة المشاة، وبيوت وعمارات على طراز أوروبي، لم ير مثلها من قبل قد استعاضت عن المشربيات بشبابيك مستطيلة

عليها ألواح الزجاج، وأشد ما أثار إعجابه تلك الأعمدة التي تنير الشوارع بالغاز.

قال الحوذني: تريد الغورية أم الجامع نفسه؟

قال العمدة: أريد الجامع، والشيخ العدوي بالتحديد.

قال الحوذني: لا بد، وأن الجامع أغلق الآن.

وصل الحنطور إلى شارع الغوري، ولما أصبح أمام الجامع الأزهر جذب الحوذني اللجام فتوقف الحصان، وهو يصدر صهيلا خافتا، جمع كبير من العساكر حول عربة فخمة مكشوفة ليس بها أحد.

تساءل العمدة: ما الأمر؟

أجاب الحوذني في ثقة: لا بد، وأن أفنديا داخل الجامع.

لحظات، وخرج الخيديوي إسماعيل، وبجواره شريف باشا، وركبا العربة المكشوفة التي يجرها عدة خيول، وصار خلف منها وحولها العساكر، سمعت همهمات وتعالت الأصوات داخل الجامع على إثر خروج الخيديوي من الجامع، كما خرج الشيخ العدوي غاضبا، وأخذ يهمهم بكلمات غير مفهومة.

قال الحوذني: هاك الشيخ العدوي.

أمسك العمدة حقيبته، وناول الحوذني نقوده، ونزل مسرعا من الحنطور ناحية الشيخ العدوي وألقى التحية، نظر له الشيخ متفحصا بعد ما رد السلام، وقال:

- ماذا تريد؟

- ألا تتذكرني يا مولانا؟، فأنا عبد الرحيم بن إبراهيم البنهاوي.

نظر إليه الشيخ متفحصا ثانية، ثم ابتسم، واحتضنه قائلا:

- مرحبا بك يا عبد الرحيم، فلم أرك منذ أن كتبت كتابك على.. آ

قال العمدة: الجازية.



قال الشيخ: نعم، الجازية لقد كان اسما مميزا يصعب نسيانه، أين أبوك لم أراه منذ أتى للمحروسة؛ ليكرم من محمد علي باشا.

- لقد توفاه الله منذ أكثر من عشرين عامًا.

تغيرت ملامح الشيخ وترحم عليه، ثم سكت قليلا، وقال: كيف لي أن أساعدك؟

تلقت العمدة يمينا ويسارا يتأكد من عدم دنو أحد منهما، ثم قال: جئت أستفتيك في أمر فيه حياتي، الأمر إنه..

قاطعته الشيخ قائلا:

- لا مجال لحديث الآن من الواضح أنك واصل لتوك، أنت ضيفي الليلة، البيت ليس بعيدا عن هنا.

حاول عبد الرحيم التملص إلا أنه رضخ مع إصرار الشيخ، سارا سويا من شارع إلى حارة إلي زقاق؛ حتى وقف الشيخ أمام باب خشبي منخفض ارتفاعه، يعلوه مشربية من الخشب المخروط، طرق الباب ففتح الخادم، انحنيا ليدخلا من الباب إلى دهليز انعطفا فيه يمينا، ثم يسارا؛ ليجدا في وجههما فناء مكشوف وسط الدار به عدة نخلات وبئر، تفتح على الفناء عدة أبواب، يتكون بيت الشيخ من طابقين، السفلي يحتوي على الحواصل والإسطبلات والبئر والمندرية، بينما العلوي يحتوي على المقعد وتوابعه ومحل القهوة والغرف والحمامات والمطابخ، تقدم الشيخ وفتح باب المجلس وبه فسقية مبلطة بالحجارة الحمراء والرخام الأبيض والأسود، نادى الشيخ على خادمه، قائلا:

- كن مع العمدة ساعده في دخول الخلاء، وتغيير ملابسه؛ كي يصلي المغرب والعشاء.

استأذن الشيخ، وصعد السلم المؤدي إلى النساء؛ كي يأمرهن بتحضير عشاء للضيف، وترك مباحة لضيفه يغير ملابسه ويصلي، عاد الشيخ بعد زمن إلى



ضيفه، وأخذه خارج المجلس وصعد به الدرجات المفضيات إلى المنذرة  
المطلقة على الفناء، والتي أخذت تتلقى الهواء المنعش في تلك الليلة الصيفية  
الحارة، أشعل فيها الخادم المصاييح، وقدم شراب التوت إلى حين الانتهاء  
من تحضير الطعام.

قال العمدة: ماذا كان يفعل أفندينا بالجامع، ولماذا تعالت أصواتكم بعدما  
خرج.

- الأمر، وما فيه أن الهزائم تتوالى في الحبشة، فضاقت صدر الخديوي لذلك،  
فأراد أن يفرج عن نفسه، فسأل شريف باشا قائلاً: ماذا تفعل إذا ألفت بك  
ملمة تريد أن تدفعها، فأجابه الباشا: إنه اعتاد إذا حاق به شيء، فإنه يلجأ إلى  
صحيح البخاري يقرؤه عليه علماء أطهار فيفرج الله كربته، فأرسل إلى  
الشيخ العروسي شيخ الأزهر؛ كي يجمع له من صالحاء العلماء يتلون له  
البخاري، فاجتمعنا عدة مرات في الجامع، نقرأ له، ومع ذلك ظلت أخبار  
الهزائم تتوالى، فحضر اليوم، وقال لنا، وهو محنتاً:

- إما الذي تقرأونه ليس بصحيح البخاري، أو أنكم لستم علماء صالحين،  
فإن الله لم يدفع بكم، ولا بتلاوتكم شيئاً، فوجم الجميع لذلك.

فابتدره شيخ آخر الصف، قائلاً: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي صلى  
الله عليه وسلم أنه قال: "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسا  
الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم، فلا يستجاب لكم).

تعجب العمدة لهذا قائلاً:

- أقال لأفنديا هكذا؟، والله إن المرء منا إذا أقبل عليه مدير المديرية، تكاد  
قلوبنا أن تقفز من صدورنا خوفاً، ولا نجسر أن نناقشه في أي أمر مهما كان  
جائراً، ولا نملك سوى أن نقول حاضر على عيني ورأسي، وماذا رد عليه  
أفندينا؟ لا بد، وأنه أخرج مسدسه وقتله.

- كلا، لم يقتله، ولم ينس بكلمة، وخرج في هدوء، كما رأيت وتبعه شريف باشا.

قال العمدة: لا بد، وأنه رجل طيب.

- ليس بالضبط، فإسماعيل أسعد البلاد وأفقر العباد، أخذ في تغيير معالم الوطن بأكمله بكل ما يملك؛ ليجلعه كبلاد أوروبا، في الوقت الذي أثقل عاتق ذويه بالديون والضرائب، فاستدان من طوب الأرض، والله وحده الذي يعلم إلى متى سيتوقف نزيه الاستدانة، وما هي تبعاته.

دخل الخادم بابريق نحاسي وطست له غطاء مثقوب، فأمسك العمدة بالصابونة وصب له الخادم من الابريق، وماء الغسيل ينسرب من الثقوب إلى قاع الطست الصغير بعدها تناول الفوطة فتبعه الشيخ، دخل الخادم بصينية كبيرة وضعها فوق المقعد المرصع، تمتلي بالخبز وطبقين كبيرين ممتلئين لحما بالبصل والفلفل، ابتداء الشيخ في تناول الطعام ليزيل الحرج عن ضيفه وأكمل الشيخ قائلاً:

- ما إن خرج الخديوي؛ حتى انقسما ما بين مؤيد ومعارض لما رده الشيخ على الخديوي، وكنت مؤيداً لما قاله، فلما عارضني البعض بدعوى أن هذا ليس من فقه المصالح والمفاسد، فقد يترتب عليه أن ننفر الخديوي من الاستعانة بأهل العلم في أي ملمة، وقد لا يدخل الأزهر ثانية، فعارضت القول بأنه هذا أفضل وقت لسماع النصيحة وقت الهزيمة لا وقت النصر،  
إِنَّمَا فَسَدَتِ الرَّعِيَّةُ بِفَسَادِ الْمُلُوكِ، وَفَسَادِ الْمُلُوكِ بِفَسَادِ الْعُلَمَاءِ، فَلَوْلَا قُضَاءُ  
السُّوءِ وَعُلَمَاءُ السُّوءِ لَقَلَّ فَسَادُ الْمُلُوكِ خَوْفًا مِنْ إِنْكَارِهِمْ.

قال العمدة: أصبت، بارك الله فيك.

قال الشيخ: هل رزقت من الجازية بأولاد.

- كلا، وانتهى الأمر مؤخراً أننا انفصلنا.

- انفصلتم بسبب عدم وجود الأولاد أم ماذا؟

- الأولاد سبب فرعي، ولم يكن السبب الرئيس، فماذا استشعرت يوماً أنها تحبني أو تدين لدواري بالولاء، ماقلت لي يوماً نحن، دائماً تقول أنا أنا، متعالية بعائلتها، وإرثها الذي كان تحت يدي، فظلت هكذا حتى كرهتها، ولم يشفع لها عندي نسبها أو مالها.  
قال الشيخ:

- تعرف يا عبد الرحيم سبب تعلق الأطفال بأمهاتهم أكثر من آبائهم؟!  
ضحك العمدة قائلاً: قلت لك يا مولانا أني لم أرزق بأولاد.  
أكمل الشيخ قائلاً: لأن الأم تستطيع أن تعبر عن حبها لطفلها بلغة سهلة يستطيع فهمها، فهي التي تطعمه، وتسقيه وتنظف ملابسه وتلاعبه وتقبله وتشتري له الحلوى، وتأخذه في حضنها عند النوم، فتشعره بالدفء والحنان.

كل هذه التصرفات تعبر بها الأم لولدها عن حبها بطريقة سهلة، فيفهما فيتعلق بها أكثر، أما الأب فيعبر لطفله عن حبه بطريقة لا يفهمها، وهي خروجه من الصباح والعودة في الليل من أجل إطعامه هو وأمه، ولكن الطفل لا يفهم مثل ذلك، ولكنه سيفهم حبك له حينما يكبر ويفهم معنى السعي لتوفير متطلبات الحياة.

كذلك الأمر بين الزوجين لو استطاع كل طرف أن يعبر للآخر عن حبه بطريقة سهلة يستطيع فهمها لما تولدت المشاكل التي يكون نهايتها الطلاق، هناك عدة طرق يمكنك بها أن تعبر لشريكك عن حبك له، ولكن مهمتك أن تعرف أي طريقة تمس شغاف قلبه، فقد يشتري الرجل لزوجته هدية غالية الثمن، وثاني يوم يمسكون في خناق بعضهما، فالهدية مهمة بين الزوجين، ولكنه لم يدرك أن كلمات الشاء أحب إليها من هدية تعطيها لها، ثم تكون لها حاضر كغائب، قد يكون أن تساعد في البيت في أمور معينة يسر شفاف قلبها عن أن تجلس معها ساعة، قد يكون جلوسك معها أحب إليها من أي



شيء آخر، فمن واضح كلامك أنك كنت دائم التقليل من عائلتها أمامها، فكانت دائما تذكرك من هي، وبنت من، وكم ترث.

- حقًا كلامك يامولانا، فهذا ما كان يحدث؟

أكمل الشيخ:

- كذلك بالنسبة للرجل، فأغلب الرجال موضوع العلاقة أهم شيء لديه، استقبال جيد عند وصوله لبيته، إشعاره دائما أنه عمود البيت، كل هذه مداخل تستطيع الزوجة الذكية الدخول لزوجها منها، فقد يكون هذا أحب إليه من أن تساعد في شئون عمله مثلا.

- أصبت.

أكمل الشيخ: مطلوب من كل طرف أن يعلم أي الأشياء أحب إلى شريكه، فيتقرب إليه من خلالها.

سكت الشيخ قليلا، ثم أكمل: سيدلك الله خيرا منها.

قال العمدة قائلا:

- ما أبدلني الله خيرا منها، ليتني رضيت بنصيبي وسكت، دائما كانت الخلافات بيننا ترجع إلى كونها ذات نسب ومال، فقررت أن أتخلى عنهما عند اختياري الثاني، فعثرت في طريقي على شابة عجيبة جميلة لا مال لها ولا نسب، فقلت هي هي، فتزوجتها.

قال الشيخ: جيد.

قال عبد الرحيم: ليس جيدا ياشيخ، فبدلاً من أن تحمد لي جميلي بأن جعلتها سيدة الدوار بعد أن كانت تطوف الموالد وتنام في الخيام، فتصون بذلك عرضي، فاذا بها تأتي بعشيقها ويزنيا معا على سريري.

علا صوت الشيخ قائلا:

- ماذا تقول، أعود بالله من غضب الله.

— نعم يامولانا، الأمر كما سمعت، وهذا سبب مجيئي إليك، لقد احترق قلبي سنين عديدة لولد يكون سندي وورثتي، ويوم أن قالت لي أنها حامل كان عشيقها على سريرتي، لأدري ماذا أصنع يامولانا، لقد قتلتها، أما هي فحبستها في بيتي؛ حتى تنجب، ولا أدري حتى الآن ماذا أصنع؟

بعد أن انصرف الشيخ العدوي وضيّفه إلى بيته، عاد شريف باشا إلى داخل الجامع الأزهر ومعه عسكري، وسأل: أين الشيخ الذي رد على الخديوي ماقاله؟، فسكت الجميع إلا أن الشيخ نهض قائما دون تملّص معلنا عن نفسه، فقال له الباشا: الحق بي، فشرع الجميع يودعون الشيخ وداع من لا يأملون له رجعة، أخذ الباشا، وعاد به إلى قصر الخديوي الذي كان جالسا في البهو، فطلب الخديوي من الشيخ الجلوس قائلا:

أعد عليّ ماقلته في الأزهر.

فأعاد الشيخ الحديث: لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم فلا يستجاب لكم).

فقال الخديوي: وماذا صنعنا؛ حتى ينزل بنا كل هذا البلاء؟

قال الشيخ: لقد شرعتم المحاكم المختلطة، وفيها يباح الربا، أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحا؟ فكيف تنتظر النصر من السماء؟

فقال الخديوي: وماذا نصنع، وقد عاشرنا الأجانب، وهذه مدنيتهم؟

فقال الشيخ: إذن كان هذا طريقك الذي ارتضيته لنفسك، فما ذنب البخاري، وما حيلة العلماء؟

فسكت الخديوي زمنا، ثم قال: صدقت؟

وأذن له بالانصراف.



(٥٣)

قال الشيخ العدوي: فهمت من كلامك إذن أنك جئت؛ لتعرف موقفك من هذا الولد، هل تنتسبه لك أم لا؟  
قال عبدالرحيم: بالضبط.

قال الشيخ: أنعم الله عليها بالزواج، فبدلت نعمة الله كفراً، وخانت زوجتها، ودنست عرضه، ولو ثت فراشه، ولهذا كان عقاب هذه المتزوجة أن ترحم بالحجارة حتى تموت، نكالاً من الله عز وجل، والله عزيز حكيم.  
لكن من رحمته سبحانه أنه يلطف بعبده، ويمهله، ويدعوه للتوبة، ويقبلها منه، ويشبه عليها، فما أرحمه، وما أعظمه، وما أكرمه سبحانه وتعالى.

قال عز وجل: ( وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا )

وأما الولد فهو ولدك وينسب لك، لأن الأصل أن الولد للفراش، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (الولد للفراش، وللعاهر الحجر).

وإن أرادت أن تنفي نسبه إليك بالملاعنة، فلك ذلك أمام القضاء الشرعي، واللعان حكم في شريعتنا يحدث عندما يتهم الزوج زوجته بالزنا بدون أن يأتي بأربعة شهداء على وقوع الزنا، ففي هذه الحالة يطلب منه القاضي أن يحلف أربع مرات) أنه من الصادقين في دعواه ضد زوجته، ثم يحلف مرة خامسة بأن يقول: (لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين) أي: فيما اتهم زوجته به من الزنا. وبالنسبة للمرأة التي تريد أن تدرأ عن نفسها حد الزنا أن تحلف أربع مرات كذلك أنه من الكاذبين فيما اتهمها به، وفي الخامسة تؤكد بأن غضب الله عليها وسخطه إن كان زوجها صادقاً فيما اتهمها به. وعند حدوث الملاعنة بين الزوجين تحدث الفرقة على التأيد، ويدرأ الحد، وتتفي نسبة الولد الذي لاعنا فيه عن الزوج - إذا كان في اللعان ذكر نفي الولد.



دخل عبدالرحيم إلى باب الحمام الرئيس الذي أفضى إلى قاعة رئيسة بأرضيات رخامية يقع في وسطها حوض كبير به نافورة، ما إن دخل العمدة من الباب المخصص للأعيان؛ حتى بالغ الخواجة في الاحتفاء به، وسلمه إلى أحد خدام الحمام الذي أخذه إلى الغرفة المخصصة للملابس، أودع فيها ملابسه وعقد حول وسطه فوطه ثم سار في مسر استشعر فيه بوهج الحرارة التي أخذت تشتد شيئاً فشيئاً؛ حتى قويت عند اقترابه من الحجرة الثانية، وفور دخوله إليها وجد نفسه وسط سحابه من بخار ساخن معطر يخترق مسام جسمه، استلقى على قطعة من القماش الصوفي، واقترّب منه خادم يلبس في يده قفازاً، وبعد أن تأكد من أن البخار اخترق المسام بشكل كاف وأحدث ليونة بالأطراف، بدأ في طقطقة كل مفاصل العمدة برفق، بعدها قام بتدليك جسده الغارق في العرق للتخلص من الوساخات العالقة به، اجتاز الغرفة إلى قاعة الاستحمام الكبرى، وبها مغطسان ذات أحواض مطلية بالملاط مليئة بمياه تأتي من عينين أحدهما ساخنة والأخرى باردة، هبط المغطس واستحم فيه، ثم عقد حول وسطه فوطه جديدة جافة وعارِد أدراجه إلى الحجرة الأولى؛ ليستريح على أريكة ويحتسى فنجان القهوة.



شرع الخادم في ذلك قدميه بحجر خفاف، بعدها ساعد العمدة على ارتداء ملابسها التي تعطرت بدخان خشب الصبر ورش رأسه برغاوي صابون مقطر، سعد العمدة بهذا الحمام جدا، وعاد إلى الخواجة؛ ليسأله عن أجرته، فسحبه من يده إلى قاعة كبيرة مفعمة برائحة الكحول، بها شباك كبير زجاجي مطل على حديقة خلفية، يتواجد داخل القاعة أعيان القرى المحيطة، البعض يدخن الأرجيلة، ويحتسي الكحول، والآخر أمامه القهوة، وهناك عدة جوارى يرقصن ويغنين، أجلس الخواجة العمدة على أحد التريزات، وطلب له طعاما فاخرا، أخرج العمدة كيس التبغ، وعبأ الشبك، ثم أخرج الزناد والصوفان، واشعل الشيم وراح يدخن، يوجد ركن مخصص لمن يرغب في لعب القمار، ويقدم بني القروض، ويقتضي العمولات، ويعتمد الرهونات، ويتسلم "الكمبيالات"،.. ويضاعف أثمان المأكولات والمشروبات.

وبعد ليلة ساهرة قضاها العمدة في حانة بني ضج جسد العمدة بالرغبة، فعاد إلى دواره صاعداً إلى الغرفة التي حبست بها زينة، استشعرت به، وهو يفتح الغرفة بالمفتاح فتظاهرت بالنوم، اقترب منها، وظل يتأمل جمال وجهها الذي زاده البكاء جمالا، اقترب منها وأخذ يتحسس وجهها وجسدها ففتحت عينيها، خلع ملابسها وصعد السرير بجوارها وضمها إليه، كانت هذه الليلة إعلان برفع مدة الحبس، وإعادتها سيدة للدوار، وفتح صفحة جديدة ونسيان ما مضى، تفاجأ عرفة بهذه التغيرات، برر له العمدة وعينه تهرب بعيدا حتى لا تقع في عيني عرفة:

- أنا بعمل كده يا ولد يا عرفة خوفا من الضغط عليها، فيموت الولد الذي انتظرناه طويلا أو تهرب هي بالولد.  
لم يعقب عرفة على كلامه، منشغلا بمهامه الجديدة كشيخ للغفر.

جلس عبدالرحيم إلى أبيه؛ يحادثه، وقد كان شابًا يافعًا فقال:

- ترى يا أبي مايفعله عربان أولاد وافي بالقرى من حولنا، يهجمون سلبا ونهبًا، وإذا اعترضهم أحد الفلاحين ذبحوه ذبح الخراف.

العمدة: وأين رجال الباشا الكبير؟

عبد الرحيم: العربان يجيدون الكر والفر، وإذا لحق بهم رجال الباشا استدرجوهم إلى الصحراء وإذا انتقلت المعركة إلى الصحراء أصبحت الأرض أرضهم، فهم يجيدون دروب الصحراء وأعماق الوديان، ولا يملك رجال الباشا حينها سوى الانسحاب.

- وماذا لو استدرجنا نحن أولاد وافي إلى هنا، وأقمناها معركة ضارية، وقتلنا منهم وأسرنا، هل ستعلو أسهمنا عند مدير المديرية ومأمور المركز؟

-ماذا تقول يا أبي !!؟؟

- عبد الرحيم ياولدي سأخبرك عما يؤرق نومي ويقض مضجعي، نجم الرحايمة ساطع لامحالة، وبدر الرحيمي عيون الإدارة عليه، ورقعة أراضي الرحايمة تتسع، والرحيمي لا يكف عن إغداق الرشاوى على رجال الحكومة ممهدا لاسترداد كرميه المسلوب، ولا يوجد سابق معروف منا

لدى الفلاحين يجعلهم يتمسكون بنا، وليس لنا عائلة في القرية تدعمنا، فسلب العمودية منا أصبح وشيكا، كما سلبت أراضي الالتزام من قبل، لقد جردنا محمد علي، كما جرد جميع الملتزمين من أراضي الالتزام وجعلها ملكا للحكومة، ولكي نسكت نصبنا عمدا وأصبح دورنا مقتصرًا على جمع الضرائب للحكومة، وأعطونا مسموح المشايخ نظير جمع الضرائب من الفلاحين واستقبال رجال الحكومة وهي أراضٍ بور، وريع مسموح المشايخ لا يكفي أكلا ورشاوى لرجال الإدارة، يأكلون ويأخذون مالا، وقد تخمرت في رأسي فكرة من شقين من شأنها تثبيت أقدامنا في العمودية لمائة عام.

- أخبرني ما يدور في رأسك.

- الفكرة عبارة عن شقين: الأول هو القرب من بدر الرحيمي، وزواجك من ابنته.

- خطوبة؟ أي كلام هذا؟ أنسيت أني خاطب ابنة خالي، فأنا أحبها.

- رقيق قلبك يا عبد الرحيم، وهذا مايؤلمني فيك، لاتدخلني في معركة فرعية، وهي صراع القلب أم العقل فليس مجالها الآن، معركتنا الآن معركة وجود، أكون أو لا أكون، أخبرني يا ولدي أيهما أفضل تكون ملكا متوجًا على هذا الزمام، تأمر فتطاع والمقابل تتنازل عن حبك الذي سرعان ما تبرد فورته بعد الزواج، وتتحول إلى علاقة فاترة خالية من المشاعر؟، لاتغتر بإعجاب مع فوران شهوة، فتتعجل بتسميتها حبا وإعجاب يترتب عليه ضياع مستقبلك، قيس لم يتزوج من بنت عمه ليلي، ولو تزوجها ماسمعنا عن حبهما، الحياة بعد الزواج مملة رتيبة، فسرعان ماتهدأ ثوران شهوتك، وتفقد الشغف، ويتبقى فقط المودة والرحمة المذكورة في كتاب ربنا، وجعلنا بينهما مودة ورحمة، بعدها ستريد أن تكسر هذا الملل، إما بزواج من أخرى أو تشغل نفسك بعملك، ثم أخبرني أي حب تحدثني عنه، وأنت لم ترها سوى



عدة مرات، وهي صغيرة بالمحروسة، لقد خطبناها ولم ترها. واكتفينا  
بأساطير أمك عن جمال بنت أخوها!.

الزواج عندي ماهو إلا وسيلة لذرية تكون عزوة وسندا، أما المنصب فهو لي  
الدنيا بأسرها، أي شيء أجمل من أن تكون سيدا في قومك، ملكا متوجا، تأمر  
فتطاع.

- وخالي؟؟

- لا تشغل بالك بخالك، تحدثت مع أمك في هذا الأمر ففهمت جيدا،  
فمصلحتك عندها أحب لديها من خالك وابنة خالك!  
- ما المطلوب مني بالتفصيل.

- أمر أولاد الوافي يشغلني منذ فترة، وتعديبهم على قريتنا عدة مرات وضعني  
في حرج كبير مع رجال الحكومة، في البداية كنت أفكر في استئصال شأفتهم؛  
ليستقيم لنا عود الحكم، ولا نوضع في حرج ثانية، إلا إني رأيت أن نستفزههم  
ونجلبهم هاهنا، ثم نأسرهم ونتفاوض على ذلك.

والمطلوب منك هو استفزاز أولاد وافي، ستخرج مع ثلاثة من عبيدنا ملثمين  
إلى مقر أولاد وافي تضربون وتسرقتون في الوقت الذي ليس رجالهم بالقبيلة،  
وتجعلونهم يعرفون أنكم من هنا، وبعد أن تنتهوا تأتوا إلى هنا في القرية  
تفعلون نفس الشيء، كأنكم هم، حتى يستشعر أهل البلدة حجم الخطر،  
فيأتون إلى عمدتهم المنقذ الذي سيظهر سيفه من غمده في وجوه البدو  
الأشرار.

- وماذا لو استفزنا البدو، وجاءوا هنا، وهم مدربون على حمل السلاح  
وفنون القتال، والفلاحون هنا لا يجيدون سوى حمل الفأس!! فالحرب هنا  
غير متكافئة، والغلبة ستكون للبدو إذن.

- كلام جيد، سنجعلها متكافئة.

- كيف؟

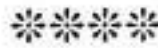
- سنؤجر مائة من فرسان البدو، من عدة قبائل متفرقة، حتى لا يجتمعون علينا ومن واقع تعاملي معهم، ومعرفتي بهم سيكون الاتفاق مع عرب العبادلة والهناد.. تحدثت معهم وأبدوا تجاوبا، فيبينهم خلافات بين أولاد الوافي وجاء الأمر على هواهم.

- سنؤجر من مالنا؟

- سندفع مؤقتا من جيوبنا حتى ننال مرادنا، ثم نحمله للفلاحين فأمنهم مسؤوليتنا، ولكن ضريبة الأمن ونفقاته فمسؤوليتهم.

- كل الفلاحين؟

- الضعفاء منهم، الضعفاء هم دائما من يدفعون نفقات الأمن العام وترفع المناصب، لأن الأغنياء يحصنون أنفسهم بمالهم، يؤجرون حراس، يبنون الأسوار العالية، يشترون الخزن، ويشترون أيضا رجال الحكومة، فلن ندخل معهم في صراع يهدد كرسينا.



لشد ما أرق نوم الشيخ، وقض مضجعه هو التفكير الدائم بشأن اتخاذ القرار باستدراج العربان بقريته، ومواجهتهم بحرب ضارية، القرار خطير حقا لا يمكن التعامل معه بخفة وتمهور والاستهانة بتبعاته، فلا بد من التريث، عرض الأمر على بدر الرحيمي الذي اعترض بشدة على هذا القرار قائلا:

- تريد أن تقامر بقرية بأكملها؛ كي تصنع لنفسك مجدا، فتلك الحرب لا تتوقف عند كونها ساحة للدم تزهق فيها الأرواح، بل قد تتحول القرية بأكملها إلى أرض يعمها الخراب والدمار.

رغم فرح البنهاوي بموقف الرحيمي حتى لا يكون شريكاً له في النصر إذا ما تحقق، إلا أن كلماته أثارت رعبه.

جلس ابراهيم وسط الفرسان الذين استقطبهم بماله بمحاربة أبناء الوافي  
قائلا:

هذه حرب تستوجب أن تأتي وتنتهي سريعا، فالتباطؤ بلا مبرر يؤدي إلى  
انخماد الحماسة واستنزاف الثروة، الجيش الذي يحتل ميدان المعركة،  
ويستظر ملاقاته عدوه يكون مطمئنا وقادرا على ملاقاته الخصم، على عكس  
من يلحق متأخرا يكون متعجلا ومرهقا، فلا بد من استدراجهم إلى القرية  
والعمل على تقليل الخسائر قدر الإمكان، فأسر اللواء المعادي أفضل من  
تدميره، فالانتصار في المعركة ليس قمة المهارة، فالتفوق الأعظم هو كسر  
مقاومته دون قتال....





لاحت في الأفق خيول أولاد الوافي تعدو فتشير خلفها هالة غبار كثيفة، صهلت الخيول عالياً، وهي تركض لتنهب الأرض من تحتها، والفرسان شاهرون بنادقهم ممسكون بألجمة أحصنتهم، وقد طلت الوحشية من عيونهم، كلظى واستعرت نيران الانتقام في صدورهم، لمارآهم الرجل الذي اعتلى برج الحمام الذي بُني حديثاً عند مدخل القرية رفع راية حمراء تلقاها الذي أعلى برج الحمام الذي يعلو دوار العمدة، فنقل الخبر لمن أسفل البرج بقدم العدو قائلاً: يا ولد حس طبلك ضرب، والمدينة تزعزعت، والغز هجمت على البلد.

في الحال اعتلى كل فارس جواده منطلقاً به إلى الجرن المخصص لدرس الغلال، باستثناء الفارس الذي توجه مباشرة إلى مدخل القرية، وأسرع السير في اتجاه خيول الوافي، ثم تظاهر بسقوط سلاحه، فاستدار في الحال، وعاد مسرعاً ناحية الجرن، لحق به أولاد الوافي مسرعين ليجدوا أنفسهم داخل جرن الغلال، وأمامهم ما يقرب من مائة فارس في انتظارهم مدججين ببنادق وسيوف، أيقنوا في الحال أن هذا الفارس استدرجهم إلى أرض معركة مخطط لها مسبقاً، كان عليهم أن يرسلوا بصاصاً يستكشف لهم أحوال

القرية قبل دخولها، كانوا يرون أن الأمر لا يستوجب ذلك، فهم في نزهة لتأديب الفلاحين الرعاع الذين سولت لهم أنفسهم الهجوم على أسيادهم، ولا مانع بجوار هذا التأديب من سلب ونهب أموالهم إمعاناً في تأديبهم، مستغلين انشغال فرسان الباشا الكبير في تبعات فيضان النيل، ليجدوا أنفسهم مجبرين كطرف في معركة مخطط لها مسبقاً من قبل عدوهم، في الحال أدرك قائدهم أنهم في موقف يستوجب قراراً حكيماً وسريعاً، ثمة شعرة بين التهور والشجاعة، كما أنها الفاصل بين التهور والجبن، ويكمن الفرق بين التهور والشجاعة، أن الشجاعة منبتها القلب ومرسأها العقل، بينما الجرأة هي إقدام سببه اللامبالاة وعدم النظر في العاقبة، والاندفاع بدون تفكير ولا حكمة، وأي عقل يوجه بدخول معركة كهذه، فهو عقل أهوج، فالأعداء واقفون أمامهم كنموذج جائعة ظلت راقدة وسط الحشائش تترقب فريستها، وهماهي تكاد تركض فجأة؛ لتنفذ عليها، فعلا صوته الذي شق عنان الصمت:

- اهرب يا ولد.

أسرع أولاد الوافي إلى الهروب تنفيذاً لأمر قائدهم، فتقدم الفلاحون والعبيد بوضع المتاريس مغلقتين منافذ الجرن، فساد صمت مطبق في أرض الجرن، صمت أولاد الوافي من جراء المفاجأة، بينما صمت فرسان العربان والفلاحون من جراء مراقبة أولاد الوافي، وهم محاصرون كالفتران، أدرك أولاد الوافي أنهم أموات لامحالة، فعليهم القتال إلى آخر رمق فيهم، قطع الصمت التحام الفريقين، وما ترتب عليه من صليل السيوف وصهيل الخيول وطلقات البنادق، وصراخ النساء، في بداية الحرب ظلت الكفة في صالح أولاد الوافي؛ حيث قتالهم كان قتال من لا يخوض حرب بعدها أبداً، بينما كان جنود البنهاوي يقاتلون قتال من ينتظر مكافأة مادية لا ينالها بموته، بينما الفلاحون مترجلون ينتظرون على استحياء الفرصة للإجهاز على من يسقط من على فرسه أو ربما ساعدوا في سقوطه، وإسعاف من يسقط من فريقهم.



وقف الشيخ إبراهيم أعلى أحد الأسطوح يدير المعركة وبجواره ولده عبد الرحيم، كاد قلبه أن يقفز من صدره، وهو يرى أولاد الوافي يتقدمون في القتال، أدرك في الحال أنه، ولا بد من استبدال خطة الحرب الأولى بالثانية، وكان قد أعد الخطة الثانية كبديل في حال تقدم أولاد الوافي في قتال الجرن، فأمر برفع الراية الخضراء كإعلان للشروع في الخطة الثانية، فقام عبيدة بإزالة بعض المتاريس، على أثرها هرب بعض أولاد الوافي في الشوارع التي فتحت لها المتاريس، فأغلق العبيد المتاريس ثانية، دخل أولاد الوافي في شوارع مغلقة بمتاريس من الطرف الآخر، بينما انسحب بعض فرسان العربان لتنفيذ الخطة الثانية، وهي القفز على السطوح المطللة على الشوارع الضيقة، وتثبيت أولاد الوافي المحجوزين فيها وإرغامهم على الاستسلام، وبهذا خفت أعداد أولاد الوافي في الجرن.

وبدأت الكفة تميل إلى العربان والفلاحين، قام العربان بإطلاق البارود عشوائيا على أولاد الوافي المحجوزين في الشوارع المغلقة، ومطالبتهم بالاستسلام، ألقى أولاد الوافي أسلحتهم معلنين استسلامهم، هبط إليهم العربان من أعلى السطوح وربطوهم مسلسلين، مازالت المعركة مستمرة في الجرن، أمر الشيخ إبراهيم برفع الراية الحمراء إيذانا بالبداية في انتشار الشائعات، فتفرق جمع منتشرون في الجرن مرددين أن أولاد الوافي الفارين، تم حجزهم وقتلهم جميعا، وهنا ضعفت همة المقاتلين وتراخت قواهم وسقطت السيوف من أيديهم معلنين استسلامهم مترجلين عن جيادهم، هتف الفلاحون بحياة جناب العمدة قائد الحرب والسلام، بعدما نزل من أعلى السطوح إلى ساحة الجرن مختالا في مشيته، قام العربان بتجريد الفريق المنهزم من كامل أسلحتهم من بنادق وسيوف وخناجر وخيول وقاموا بربطهم بحبال مسلسلين إلى الإسطبل باستثناء فارس منهم صحيح معافي يُدعى حربي أمره بالعودة إلى قبيلته؛ ليخبرهم بما حدث؛ ليأتي وفد منهم



لايزيد عن عشرة لاستلام الجثث، ثم يتم تحديد موعد لحضور شيخهم للتفاوض على الأسرى، ثم أرسل ولده عبد الرحيم إلى المديرية بتفاصيل ما حدث، ويطلب تجريدة أو تجريدتين لحماية الأسرى من هجوم محتمل من أولاد الوافي لفك أسراهم، وطلب توجيهات مدير المديرية بخصوص الأسرى، دفع الفضول مدير المديرية ليشاهد هذه القرية بنفسه، ويرى الأسرى الذين كثيرا ماهددوا منصبه بسبب جرائمهم، وقرر بأن يكون بالاجتماع الذي سيتم فيه التفاوض على الأسرى.



تحدث الشيخ إبراهيم إلى عبد الرحيم في الشق الثاني من الخطة، وهي تقدمه للزواج من ابنة بدر الرحيمي:

أرسلت أمك لبيت الشيخ بدر تطل على العروسة، وتلمح لأمها بمرادنا. قال عبد الرحيم: أتمنى أن تكون جميلة.

الشيخ إبراهيم: هناك مثل يقوله الخوجات في الظلام كل القطط رمادية، ففي الظلام ياولدي تستوي كل النساء، الجمال لا دخل له في إمتاع الرجل، بل أحياناً تكون المرأة الجميلة مغرورة بجمالها أو متكبرة على زوجها، وهذا يفسد ما تحتاجه المعاشرة من تودد.

وعلى أي أساس تزوجت أمي فهي جميلة.

تلقت العمدة الكبير يمينا ويسارا؛ ليتأكد من أنها لم تأت بعد، ثم قال:

- أصر جدك على زواجي من أمك ابنة محتسب القاهرة، فجدك كان تاجرًا كبيرًا من تجار المحروسة، وكان يخشى من بطش محتسب القاهرة الذي كان قاسيًا فظًا لا يخضع عقابه لأي قانون، كان يقطع آذان الرجال إذا خالفوه لأتفه الأسباب، كانت مهمته الإشراف على أسواق القاهرة، وعلى مقاييس التجار وموازينهم، كان يتجول في أنحاء المدينة بسيفه، ويتبعه الجلادون

والخدم وحامل الميزان، يراقب أسعار السلع في المتاجر، غالبًا ما يوقف المارة أو الخدم ليسألهم عن السلعة الغذائية التي اشتراها وشئها. عذب رجلا بسبب بيع خبز ناقص الوزن بأن جعل في أنفه حلقة علق عليها قطعة خبز سميكة بواسطة خيط، كان يقطع شحمة الأذن بسبب مخالفات بسيطة، بل أنه مرة قطع أوقتي لحم من ظهر أحد الجزارين بسبب تلاعبه بالوزن. ناهيك عن بائع الكنافة الذي لم يسلم أيضا؛ حيث وضعه عاريا فوق صينية الكنافة النحاسية التي أخذت تدور به، والنار مشتعلة تحتها؛ لأنه طالب زبائنه بأن يدفعوا أكثر من السعر المحدد وأبقاه على هذا الحال حتى احترق، كان يطوف على الباعة ويضرب بالدبوس لأدنى سبب، فأغلق التجار الحوانيت ومنعوا وجود الأشياء على ما جرت به العادة في رمضان من عمل الكعك والرقاق وغيره، فلم يلتفت لامتناعهم وغلقهم الحوانيت، وزاد في العسف ولم يرجع عن سعيه، ولازم على السعي والطواف لا ينام ليلا ونهارا، بل ينام وقت ما يدركه النوم في أي مكان ولو على مصطبة حانوت، وأخذ يتفحص السمن والجبن المخزون في الحواصل ويخرجه ويدفع ثمنه لأربابه بالسعر المفروض ويوزعه لأرباب الحوانيت، لبيعوه للناس بزيادة نصف أو نصفين في كل رطل.

اعتاد أن يعاقب الجزارين بأن يضع في أنوفهم خطافا يعلق به قطعة من اللحم للدلالة على جشعهم، صادف رجلا يبيع قلاا من سمنود، ويدعي أنها قلال قناوي، فما كان منه إلا أن طلب من المارة أن يكسروا القلال فوق رأسه. ضحك العمدة الكبير وأكمل: صادف عجوزا يبيع بطيخا، فاستوقفه وسأله عن سعر واحدة منها، فأشار الرجل إلى أذنيه، وقد وضع سبابتة عليهما فلم يفهم المحتسب، فكرر سؤاله مرات حتى ظن أن الرجل أصم، فقال له العجوز: يا سيدي اقطعها، لأنني لو قلت لك إن سعر البطيخة عشر فضات ما أعجبك وأمرت بقطع أذني، ولو قلت لك بخمس فضات لأمرت أيضا



بقطعها، فاقطعها ودعني أمضي في سبيلي، فضحك المحتسب، وتركه  
يمضي.

تعالَتْ ضحكاتهم إلى أن قدمت ابنة المحتسب على صوت الضحكات  
- ألا تضحكوننا معكم؟؟؟



أقيمت الأفراح، وذُبحت الذبائح، حضر مشايخ وأعيان القرى المحيطة مهئين بهذا الانتصار، وحضر شيخ الخط وناظر القسم، جلس الشيخ إبراهيم يحكي عن مآثر، ورؤى ومنامات لم تحدث، وقوى خارجية هاتفته، جلس الشيخ هنداوي شيخ قبيلة أولاد الوافي في ركن منكسًا رأسه ينتظر الاجتماع المرتقب للتفاوض بشأن الأسرى، انتفض الجميع فجأة لما قيل أن مدير المديرية وصل ومعه المأمور، اقتربت التشريفة من دوار العمدة، هبط مدير المديرية من عربة تجرها الخيول يليه مأمور المركز.

نزل الجميع ليستقبلوهم، تقدم العمدة وانحني، وهو يسلم:

يامرحبا يا بك، يامرحبا.

- أنت العمدة؟

- خدام جنابك.

- عفارم عليك يا عمدة.

- نحن ننفذ توجيهاتكم، وتوجيهات الباشا الكبير بالضرب بيد من حديد

على أي هجوم للعربان.

أكمل مدير المديرية حديثه:

سأرسل تقرير عن هذه الواقعة إلى الديوان العالي، والتي يتطلع عليها  
الكتخدا بنفسه، ومن ثم يعرضها على الباشا الكبير.  
لم يجد العمدة رداً إلا أنه انحنى على يد مدير المديرية ليقبلها.  
أين الأسرى أريد أن أراهم؟.

طاف الجميع على المستودعات المحجوز بها أولاد الوافي، وما كان من  
مدير المديرية أن يردد عفارم عفارم، ثم عادوا إلى الدوار، دخل كلا من  
حسين رستم بك مدير المديرية، ومن بعده مأمور المركز وناظر القسم إلى  
الغرفة التي جهزها العمدة للاجتماع، قبل أن يدخل العمدة إلى غرفة  
الاجتماع مال على الشيخ بدر الرحيمي الذي جاء للتهنئة:  
- لا تمش أريدك في أمر هام.

بعدها أذن العمدة لعيده بالدخول بالطعام، قال العمدة:

- ناكل لقمة صغيرة كده قبل ما نبدأ الاجتماع.

أبدى الجميع الموافقة.

- لا مانع لا مانع.

دخل العبيد بخروف مشوي كامل موضوع على صينية نحاسية كبيرة مليئة  
بالأرز والفتة، يليها صينية مليئة بالببط والأوز والحمام والفطير والعسل  
والجبين، ويليه صينية مليئة بالفواكه، وأخرى مليئة بالكنافة والهريسة.

قال مأمور المركز: لعلك تركت شيئاً في البيت لتأكلوه فيما بعد يا عمدة؟  
ضحك الجميع.

الخير كثير، والحمد لله، تأمروا انتو بس..

يدوم العز يا عمدة، دايمًا عامر إن شاء الله... قال شيخ الخط.



أخذوا يأكلون ويشربون ويزددون، تمتد الأيدي إلى الخروف تنهش منه، وترجع ملاءى، ثم تعود ثانية وثالثة، في يد لحم الخروف. وفي الأخرى إما صدر بطة أو حمامة محشية.

انتهوا لفورهم من الطعام.

أشار العمدة بضرورة الاتفاق مسبقاً بما يخص الأسرى قبل إدخال الشيخ هندواي الاجتماع، كما دفع العمدة بالشيخ بدر الرحيمي دفعا في إطار الحديث؛ حتى يتم تنصيبه شيخاً من مشايخ البلد، ليقطع عليه طموحه فيما بعد كعمدة، وليمهد لموضوع الزواج، تم ترتيب الحديث والاتفاق على كل شيء يخص التوطين، وإعادة تقسيم زمام القرية، وتعيين الشيخ ابراهيم عمدة على جميع مشايخ القرية الذين سيتم تعيينهم، قام العمدة وفتح الباب، وطلب من الشيخ هندواي الدخول، كما طلب أيضا من الشيخ بدر الرحيمي الدخول، ابتسم الشيخ بدر متعجبا، ويشاور على نفسه أنا.

قام الرحيمي متشياً بنظرات الجالسين.

دخل الشيخ الهنداوي، وألقى التحية على الجمع، وجلس، يليه بدر الرحيمي.

قال حسين بك:

- نريد أن ننهي الأمر سريعا، فلدينا أشغال أخرى، ماقولك ياشيخ هندواي في أمر الأسرى.

رد الشيخ الهندوي دون أن ينظر:

- القول قولكم يابكوات فإصبعي أسفل فككم، وما علي سوى السمع والطاعة حتى أستطيع الخلاص بأولادي.

- لا خلاص لأولادك إلا بالتوطين.

انتفض الرجل واقفا لما سمع الكلمة، ولم يجلس إلا حينما رمقه مدير المديرية بنظرة غضب

أكمل الهندوي، ولم يكثرث بنظرة الجميع، وتابع قائلاً:  
- يابك أي توطين تتحدثون عنه، أنتم هكذا لا تريدون الخلاص لأولادي، بل تريدون قتلنا جميعاً، الصحراء لنا كالماء للسّمك، نحن نعشق الحرية، ولا نريد أن نكون عبيداً للأرض، عبيداً للطقس، نقلع، ونزرع ونزرع، ونقلع ونزرع.

- التوطين هو بداية الحياة السهلة، ستجد جهدك وتعبك مجسداً أمامك ستفرح كل يوم بنموه كما يفرح الرجل بنمو ولده.  
- أي حياة سهلة هذه ياسيدي، الفلاحون أرهقتهم الضرائب والإتاوات، كل يوم والآخر نسمع عن الفلاحين الهاربين من أراضيهم الذين تردونهم إلى أراضيهم جبراً، ناهيكم عن أعمال السخرة والمتمثلة في بناء الجسور...  
زام الجميع، ولاحت أمارات الضيق على وجه مدير المديرية ثانية، وقال وهو يرمق الهنداوي بنظرة غضب:

اسمع يا شيخ لا داعي أن تحيد بنا عن عصب الاجتماع، أنت هاهنا؛ لتسمع فقط لا لتكلم، نحن هنا جميعاً باختلاف المراتب ننفذ سياسة التوطين التي يتبناها الباشا الكبير، وذلك للحد من جرائم العربان وسطوهم الدائم على الفلاحين، لا وقت لدي لأضيعه معك، فالتوطين أمر منهي لا نقاش فيه، تريد أن تناقش تفاصيله لا مانع.

لما رأي الهنداوي الأمور ستخرج من يده، لم يجد بداً من الموافقة.  
- لا مانع يابك لدي من التوطين، ولكن أرضاً تعطونا إياها.  
- لن تدخلوا على أراضي الفلاحين، وتقاسموهم في قوت أولادهم، فالقرية هاهنا مستقرة، وكل ملتزم بما يزرع، سنضم الجفالك والأبعديات في غرب القرية بما يعادل متني فدان إلى زمام القرية ونثبته في الدفاتر، وتكون شيخاً على هذه الجفالك أسفل العمدة الشيخ إبراهيم الذي سيكون عمدة على جميع مشايخ البلد، ولنضمن ألا تستقل هذه الجفالك، وسيتم تعيين الشيخ

بدر الرحيمي شيخا للقرية على الجزء الشرقي، ويكون مدرجا أسفل العمدة أيضا.

نظر مدير المديرية إلى الشيخ بدر قائلا:

- هل هناك ما يمنع يا شيخ بدر؟

تفاجأ بدر قائلا: لا، لا يابك أبدا، هذا شرف عظيم لنا.

قال الشيخ الهنداوي: تضمون الجفالك، وهي صحراء جرداء، وتطلبون منا زراعتها، ونحن لا خبرة لنا بالزراعة؟

- ستتعبون في زراعتها، وستكون ملكا لكم، ومعفية من الضرائب لمدة خمس سنوات، وسيوفر لك العمدة كل الدعم من تقاوي وخبرات.

- لا مفر سوى القبول بالوضع هذا؛ كي أفندي أولادي.

- لا تظن أنه يمكنك خداعنا بأن نسلمك أولادك، ثم نفر بهم، سيتم التحفظ على بعضهم، ويتم استبدالهم سنويا، إلى تمام خمس سنوات.

أمر مدير المديرية كاتبه أن يخط بقلمه:

إنه في يوم ٢٩ من صفر ١٢٥٦ هجرية، الموافق أول مايو ١٨٤٠ ميلاديا، حضرت اللجنة برئاسة حضرة صاحب السعادة حسين رستم بك مدير المديرية، وبحضور حضرات أصحاب العزة: عبدالمعطي بك ثابت مأمور المركز، ونجيب سليمان ناظر القسم، وكذلك الحاج عبد الحكيم وهدان شيخ الخط وقد قررت اللجنة الآتي:

يتم زيادة زمام القرية من ألفين فدان إلى ألفين ومئتي فدان، وذلك بضم بعض الجفالك والأبعديات إلى الزمام.

يتم تقسيم زمام القرية الجديد إلى أربعة وعشرين حصة على كل مجموعة من الحصص يتم تعيين شيخ، تخصص له أنفارا معلومة من سكان القرية، وأطيانا محددة حسب الزمام الجديد للقرية، على أن تصدر لكل شيخ قائمة من ديوان المديرية، يتم تنصيب الشيخ بدر الرحيمي شيخا للقرية على عشر حصص، وكذلك تنصيب الشيخ الهنداوي شيخا على الجفالك المستجدة، وعلى رأس الجميع يكون إبراهيم البنهاوي عمدة...



قال عبد الرحيم لأبيه: أريد أن أتحدث معك بشأن إعدادك لخطة حرب  
العربان، وخطة بديلة حال تقدمهم في القتال، حتى الشائعات التي كان  
لها أثر سلبي على معنوياتهم وعلى إثرها ألقوا أسلحتهم، من أين لك  
كل هذا، وأنا منذ صغري لم أرك تحمل سيفاً.  
دربني المماليك على كل هذا أثناء حربهم مع الفرنجة.  
كيف هذا؟

لابد أن أخبرك أولاً من هم المالك؛ حتى تعرف كيف التحمت معهم،  
قديمًا توسع السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب في شراء المماليك؛  
ليستعين بهم ضد منافسيه، جاء بهم إلى مصر رقيقًا صغارًا من بلاد متعددة،  
أسكنهم جزيرة الروضة بقلب النيل؛ لذا سُموا بالمماليك البحرية، جاءوا  
أطفالًا صغارًا انقطعت حبايلهم نهائيًا بمواطنهم الأصلية، وتربوا وتعلموا  
اللغة العربية والدين، بعد موت الملك الصالح تولت زوجته شجرة الدر  
الحكم في ظل اعتراض من الشعب والعلماء، فتزوجت من المملوك عز  
الدين أيك وتنازلت له عن الحكم، استمر حكم المماليك البحرية أكثر من  
مائة وثلاثين عامًا حققوا فيها العديد من الانتصارات على التتار وبقايا  
الصلبيين، بعدها تولى الحكم المماليك البرجية، وهم سكان أبراج القلعة

واستمروا في حكمهم أكثر من مائة وثلاثين عاما أيضا، وانتهت فترة حكمهم بالغزو العثماني لمصر على يد السلطان سليم الأول، وتولى حكم مصر المماليك البكوات الذين ولاؤهم للسلطان، كان لجدك علاقة وصداقة وتجارة بهؤلاء البكوات، حتى أنه دفعني إليهم؛ كي أتعلم منهم الفروسية، تعلمت فنون القتال وركوب الخيل، توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني، فكانوا يعيشون على ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة على التتار والصليبيين وغيرهم، ولم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل إليه جيش نابليون، فبعد أن ثبت نابليون قدمه في الإسكندرية أخذ يزحف على القاهرة، أخذ المماليك يرمقونهم بنظرة احتقار وازدراء؛ حتى برز أحدهم ضانا أن عصر الفروسية ما يزال باقيا، وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير، وتقدم إلى الفرنسيين حتى بقي على بضعة خطوات منهم، وهناك طلب مبارزه قائدهم، ولكن الفرنجة وقد أضناهم الحر والجوع والعطش أجابوا على طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية ملطخا بالدماء، إلى أن جاءت معركة إمبابة.

كان المماليك قد اتخذوا العدة لمقابلة الفرنجة، وضعوا الهزيمة نصب أعينهم، فأعدوا وسائل الهرب قبل وسائل الحرب وجمعوا جواهرهم وحليهم قبل أن يجمعوا بنادقهم ورصاصهم، وخرج سكان القاهرة لملاقاة الفرنجة والدفاع عن المدينة، فأغلقوا متاجرهم وأنشوا المتاريس في الشوارع، وتطوع عدد كبير منهم لحمل السلاح، وكنت منهم وأخذ جيش الفرنجة يتأهب للقتال ومع كل الاستعداد الذي حدث لحماية القاهرة إلا أن الهزيمة حلت بأمر المماليك عند لقائهم الفرنجة، واستولى نابليون على إمبابة، وانتهت المعركة، وفر مراد بك إلى الصعيد...

(٦٠)

عاد الهندواي، ومن يرافقه إلى مقر القبيلة، ترك فرسه أمام الخيمة وأسرع إلى الداخل؛ حيث الخيمة المعدة للاجتماعات، وأمر بعقد مجلس عرفي فوري لأكابر القبيلة، اجتمع أهل الحل والعقد إضافة إلى بعض الشباب، حكى الهنداوي سريعا عما دار بالاجتماع، زام الجميع مستنكرين وتعالى أصواتهم لما سمعوا بالتوطين، تركهم الشيخ فترة يفرغون ما ألم بهم، لعلمه بواقع كلمة التوطين على صدورهم، ولما خفت الهمهمات، قال الشباب: - لن نخضع لمثل هذا الذل، وتلك المهانة، سنخوض حربا لتخليص الأسرى من قبضتهم حتى لو متنا جميعا.

قال الشيخ: على رسلكم يا شباب، وأدركوا ماذا تقولون، الثمانون رجلا الذين تم أسرهم هم أقوى شباب قبيلتنا، وهم تحت حوزة العربان بالإضافة إلى أن العمدة طلب تعزيز بتجريدتين لتأمين الأسرى.

قال أحد الشيوخ:

«تريدنا جبناء، نضع رؤوسنا في الرمال، كلاب الوحل، يمكننا أن نستعين بعربان ماجورين، يخلصون لنا أولادنا.



تعالّت أصوات الشباب:

- نعم هذا هو القول.

قال الهنداوي:

- الأمر سيتحول إلى حرب ضروس تستنفذنا؛ لأننا الآن لا نحارب العربان، بل نحارب الحكومة، والأمر فيه خطورة على أبنائنا، وستكون الغلبة حتما للحكومة، وحينها لن تنفع أي مفاوضات، اسمعوا يا أهل العقل، ما حدث لنا أمر جلل، ولا بد من التعامل معه بحكمة بالغة وإلا حكمنا على أنفسنا بالهلاك، فدرء المفسد مقدم على جلب المصالح، أي عاقل؟ يقول بأن نخوض حربا غير متكافئة مع الحكومة تختل فيها موازين القوى، وستكون فيها نهايتنا، لمن نترك نساءنا وأطفالنا، فقد يما لم تتمكن كتائب فرسان الباشا من الإمساك بنا؛ لأننا كنا نتخير وقت الفيضان، ناهيك عن إجادة الكر والفر، كتم تهبشون وتفرون، تفرون سواء هبشتم أم لا، ماتطلبونه حربا وليس خطف وكر وفر، التوطين ليس صعبا كما تفخمون، وأنا في الاجتماع دار في ذهني كل ما قلتموه الآن، وعارضت الأمر بشدة، لقد زام مدير المديرية وهم بالانصراف، باب النقاش في أمر التوطين مغلق، فهو ينفذ سياسة الباشا الكبير لتوطين العربان حماية للريف وتحقيق الأمن والنظام لسكانه، ولو كنت تركته ينصرف ما حلت تلك المشكلة أبدا، ولرحلوا أولادنا إلى المديرية، ومنها إلى القلعة؛ كي يعدموهم أو يجندوهم إجباريا في حروب الباشا التي لا تنتهي، وحينها سنخسر شبابنا الذين هم عماد قبيلتنا، ولن تقوم لنا قومة مرة أخرى، سنكون مجرد قبيلة العجزة فيها أكثر من الشباب، وحينها سيأكلنا أعداؤنا، وسيسبون نساءنا وأطفالنا، لقد ربينا لنا أعداء كثر الفترة الماضية، وهم من شاركوا العمدة في حربه، ولو انفردوا بنا ثانية؛ لأبادوا الرجال، وأسروا النساء والأطفال.

سكت الجميع.

قال أحد أكابر القبيلة:

- فتح الله عليك يا شيخ هنداي و أنار بصيرتك، فالقول ماقولته وليس بعده أي كلام، فالتوطين أهون كثيراً، وما محتوى الوثيقة التي مضيت عليها؟  
أجاب الشيخ: سيعطوننا أراضي بور من الجفالك والأبعاديات التي سيضمونها إلى زمام القرية، وتكون معفية من الضرائب لمدة خمس سنوات، وبعد الخمس سنوات سيملكوننا ما استطعنا إحياءه منها، والعمدة سيقدم لنا كل العون والتسهيل.  
قال أحدهم:

- العمدة، كيف وهو عدو لنا.

قال الهنداي: لا نريد أن نكثر من أعدائنا، والعمدة ليس عدواً لكم، هو فقط كان يصد هجومكم، ولقد عرفت من أحد الرجال بالقرية أنه بعد ما انتهت الحرب، وأسروا أبناءنا طلب العربان أن يقتلوا جميع الأسرى، إلا أن العمدة تصدى لهم ورفض بشدة.

(٦١)

نهض الشيخ إبراهيم يستقبل الفارس الذي أرسله مأمور المركز إليه؛ ليخبره  
بضرورة استعداد العمدة للسفر؛ ليقابل الباشا الكبير محمد علي باشا في  
القلعة، ليتم تكريمه مع فوج عمد ومشايخ القرى، ثم انصرف، ظل الشيخ  
إبراهيم صامتا من هول المفاجأة بعد ما انصرف الفارس.

-مالك ياأبي صمت هكذا، وحق لك أن تفرح.

- لا شيء، لم أكن أحلم بشئ كهذا، فجل ماكنت أطمح إليه أن نوطد أقدامنا  
هاهنا، وما كنت أظن أن يوضع اسمي مع العمد الذين سيذهبون للتكريم في  
القلعة، ولكن حينما ذكر اسم الباشا الكبير ارتعدت أوصالي، وسرت في  
جسدي رعشة.

- لمَ كل هذا؟

- لقد كنت سأقتل في مذبحه القلعة.



(٦٢)

أتبع الطريق، ولو دارت وخذ بنت الأصول، ولو بارت...  
بالخارج أضى الدوار بالأنوار والمصاييح، وكذلك المسالك المؤدية إليه،  
حضر المجلس عدد كبير من أصحاب المقامات الرفيعة، اعتدل الشيخ  
العدوي في جلسته، وقد كان شاباً، فتح أوراقه، وكتب في أعلى الورقة.  
زواجا

هذا كتاب تزويح صحيح شريف معتبر مرعي، صدر بمجلس الشرع  
الشريف ومحفل الدين المنيف المصون عن التغيير والتبديل والتحريف،  
أصدق السيد عبد الرحيم بن إبراهيم البنهاوي مخطوبته الشريفة الجازية  
بنت بدر الرحيمي البكر البالغ، مهرا قدره ثلاثون ديناراً من الذهب السلطاني  
السليمانى، على بركة الله وعونه وحسن توفيقه، وسنة سيدنا محمد صلى الله  
عليه وسلم، صداقاً بشهادة كل من المكرم الحاج يونس القباني، وفخر أقرانه  
الحاج أحمد شلش، تزويجاً شرعياً.

هم الشاهدان ليمضي أحدهما ويختتم الآخر، تعالت الزغاريد في الدوار،  
تعانق الرجال مباركين زواج العروسين، قدم الشيخ إبراهيم البنهاوي كل

آيات الشكر والتقدير للشيخ العدوي لحضوره بنفسه ليكتب العقد، قام شيخ العرب الهنداوي يعانق الشيخ إبراهيم والشيخ بدر الرحيمي ويبارك الزواج، في الصباح خرجت العروس في رفقة صديقاتها وقربياتها تحت هودج متجهها إلى الحمام الذي ابتناه بدر الرحيمي خصيصا لتلك المناسبة، يغطيها تماما قناع كبير يغطي وجهها تماما، ويزين رأسها تاج كبير، قرعت الطبول وأغنيات العرس وزغاريد النساء، تقدم رجالان يحملان لوازم الحمام فوق صنيتين مستديرتين كل واحدة مغطاه بمنديل حريري مطرز، كما تقدم رجل يحمل قمقم بداخله ماء ورد للرش على المارة، كما يحمل مبخرة من الفضة، مسيره صاحبة مليئة بالحيوية، وصل الموكب في نهاية المطاف إلى الحمام، ملئت المباخر بالبخور الطيبة، قدمت خادמות الحمام القهوة والشربات والحلوى، استعرضت الجازية على صديقتها وقربيتها حليها وكشف الجميع عن أجمل زيتهن، وأريقن العطور بسخاء وبزخ، انقضى اليوم في مرح بهيج، وعاد الموكب ثانية إلى بيت والد العروس، وفي العصر حضر الحلاق إلى عبد الرحيم، قام بحلق نصف رأسه، ثم هم بجمع أدواته لينصرف، تعالت ضحكات أصدقاء العريس الذين بدءوا من فورهم بإخراج نقوطا إلى الحلاق الذي تمتم:

- حيث كده نكمل.

تعالت ضحكات الجميع مرة أخرى، فهو دائما مايفعل هذا في كل فرح؛ ليجمع نقوطا من أصدقاء العريس.

جلست أم العروس تلقنها نصائح عن الزواج:

(( احفظي أسرار زوجك، وأسرار بيتك حتى عن أقرب الناس إليك)).

(( الرجل لا يحب المرأة العنيدة)).

(( نامي مبكرا، وقومي مبكرا؛ فالبركة في البكور، والنوم الكافي فيه نضارة

الوجه)).

(( لا تنامي أنت وزوجك في مكانين متباعدين أبدا حتى، وأنتما متخاصمان،  
فالتلامس يصنع الدفء، والدفء يصنع الحب)).

تم إطلاق النيران في الهواء، وتم عرض أثاث المنزل على ظهور الجمال  
والعربات التي تجرها الخيول. دوار العمدة يموج بالحركة منذ الصباح، فقد  
ذُبحت الذبائح واستعد لإعداد الولائم بعد ما انهار النقوط الذي كان عبارة  
عن مواشي وأرز وغلّال، خرج الشيخ بدر الرحيمي وأخواته وعائلته في  
موكب مماثل ليوم الحمام، ركبت العروس الهودج مرتدية فستانا من الستان  
الأيض الدمشقي، وفي المقدمة سار العبيد حاملين مجوهراتها وصناديق من  
الخشب والعاج بها ملابسها على عربات خشبية تجرها الخيول، يحيط  
بالموكب الآلاتية وحملة المشاعل، تعالت الزغاريد مع الطبل، دارت الزفة  
في الشوارع الرئيسية بالقرية إلى أن وصلت إلى دوار العمدة، دخلت العروس  
الدوار فاستقبلها النساء وفي مقدمتهن أم العريس التي أخذت تقبلها  
وتحتضنها، ثم أحضرت إناء من اللبن غمست فيه العروس يدها اليمنى  
تفاؤلا باليمين، ثم أمسكت الأم بابريق ذهبي وأخذت ترش أرضية غرفة  
النوم متممة بكلمات لطرد الأرواح الشريرة، تقدمت أخوات العريس  
يقدمن للعروس الهدايا قماشاً وقطع ذهب، في الخارج اجتمعت القرية  
ليباركوا الزواج، لم يبخل العمدة في هذا اليوم بشيء فذبحت الذبائح،  
وأقيمت الولائم، وزعت صواني الأرز واللحم دون حساب، حضر الفرح  
مأمور المركز وناظر القسم وشيخ الخط ومعاونوهم، كما حضر شيخ  
العرب في جمع من أبناء قبيلته، ظهرت أمارات الفرحة والبهجة على  
الجميع.

في جرن الدوار ظهرت أمارت البهجة والفرح على الفلاحين، فُردت لفافات  
حصير السمار في أماكن متفرقة من الجرن، نصيب كل حصيرة قرؤانة مكتظة  
بالفحم المشتعل، احتشدوا ضاكين متلهفين حول صواني الأرز باللحم



الذي تتصاعد منه الأبخرة فأكلوا ملء بطونهم، وزعت بعدها الفطائر  
والمشروبات السكرية والشربات، في الداخل أعدت مائدة غناء عليها كل  
مالذ وطاب لمأمور المركز وناظر القسم وشيخ الخط ومعاونوهم وشيخ  
العرب، وقف الشاعر يغني:

كل المجاريح طابو بس أنا فاضل  
وطبيب الجراح دوا الناس، وأنا فاضل  
أنا قلت يا طبيب ما عندكشى دوا فاضل  
عسس على القلب، والتفت قال لي  
روح ياقتيل الملاح ما عاد لك دوا فاضل

هبط الرجال إلى المرسى الخشبي ليركبوا سفينة شراعية كبيرة تقصد المحروسة، ركابها ما بين نظار أقسام، ومشايخ خطوط، وعمد ومشايخ القرى، وبعض مشايخ العرب، انتشر عدة جنود في أماكن متفرقة من سطح السفينة للحماية، قدم الجنود ممسكين برجال مسلسلين بحبال من الكتان، تم فتح باب يؤدي إلى قاع السفينة أنزلوهم واحداً تلو الآخر إلى الفجوة عبر سلم خشبي، هم بعض المشاغبين الذين أمسك بهم كتائب الفرسان، يرحلونهم إلى القلعة لتأديبهم بالتجنيد الإجباري، تسلق أحد النوتية حبال الساري لفرد الأشرطة استعداد لإقلاع السفينة، على ظهر السفينة فرشت السجاجيد والمساند والمخدات ذات الأقمشة الحريرية، أخذ الرجال مجالسهم وبدأ الخدم في توزيع القهوة والمشروبات الباردة وأطباق الفاكهة، لم يكن الشيخ إبراهيم يعرف أحداً من الموجودين، فانتحى جانبا مستندا إلى حافة السفينة محدقا في صفحة مياه النيل الرائق، انتحى كعادته دائما إذا ما اختلط بأناس لا يعرفهم، فهو لا يألف الأغراب سريعا، شعر بيد ربتت على كتفه برفق، التفت في الحال فغذا برجل طويل القامة أسمر البشرة حاد التقاطيع اختلط سواد لحيته ببياض أكسبة المهابة، يرتدى جلبابا مقلما من

الصوف بأكمام واسعة، يلتحف فوقها عباءة بيضاء اللون من صوف شديد الرقة، حول خصره حزامًا من الجلد يدس فيه خنجرًا، يضع على رأسه عقلاً أسفل منه شماغ، مد يده بتودد للعمدة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، نهض العمدة ليسلم عليه في حذر، تعانق الرجلان ونادى العمدة على أحد عبيده المرافقين له؛ ليحضر عدة مساند، جلس الرجلان. ورحب البنهاوي:

- يامرحبا ياشيخ هنداوي، تفاجأت بوجودك، لم يخبرني ناظر القسم بمجيئك معنا.

- جاءني رسول من المديرية يخبرني، بضرورة الحضور اليوم، للسفر إلى القلعة، لتقديم فروض الولاء والطاعة للباشا الكبير، حتى نستكمل إجراءات التوطين والإفراج عن الأسرى.

لا زال الشيخ إبراهيم حذرًا من الراجل، فما بينهما سوى قتلى ودماء؛ ليلقى منه كل هذه الحفاوة وهذا الود، عاجله الهندواي الذي لاحظ ذلك فقال:  
- أعلم إنك متعجب من كوني أتيك؛ لأسلم عليك وأجالسك، لا تعجب ياشيخ إبراهيم، فأنا لست عدوك، يعلم ربي بآني لم أرض يوماً عما كان يفعله شباب القبيلة، وكثيراً ما نهيتهم عنه أقسم لك ياشيخ أني لم آكل مرة مما سلبوه، فإن لي إبلا آكل منها، كثيراً ما حاولت عرض التوطين على مجلس القبيلة، فلم أجد كل مرة سوى رفض لاذع.

- ولم تعارضون التوطين؟

- تربي أبناء القبيلة على الحرية والاستقلال، سلطة الدولة ليست لها قيمة أخلاقية في نظرهم، فالحياة الزراعية تجعل الناس أكثر حساسية واستجابة لأفكار العدل والنظام والملكية، أما الحياة البدوية فسهولة التنقل تؤمن التخلص من العقاب وعدم الوقوع تحت طائلة النظام، الغزو من التقاليد والأعراف الاجتماعية المقبولة في قبيلتنا، يمارسون الغزو ويعتبرونه جزءاً



لا يتجزأ من التكوين الاجتماعي والاقتصادي لكيانهم وبقائهم، فعادة الغزو لا تعني مجرد السلب والنهب، وإنما فيها إظهار للرجولة والإقدام والفخر بالفروسية، فالرجل منهم قوي بكثرة الغزوات التي اشترك بها، وكلما زادت جراحه زاد معها قدره ومكانته في القبيلة، العجرفة والكبرياء والتعالي هي الصفات التي يتعاملون بها مع الفلاحين، يرون أن أفضل العيش القائم على خيرات الغير دون مشقة، ينظرون إلى الفلاحين أنهم ولدوا خصيصا لإنتاج طعام العربان، ينظرون إلى العربان الذين اتخذوا الفلاحة مهنة نظرة احتقار، يحطون من قدرهم، يصفونهم بأنهم فلاحون حقراء أخساء لم تعد تجري في عروقهم الدماء العربية، عرفت إذن لماذا يعارض أبناء القبيلة التوطين؟.

- ولكنك كنت تعارض بشدة أيضا يوم اجتماعنا.

- كنت أفعل ذلك؛ لأن الرجل الذي كان معي سينقل اعتراضي الشديد هذا للقبيلة، وأنا أريد أن يصل إليهم بأني ما قبلت إلا مضطرا.

- ومتى تنوون القدوم إلى القرية.

- بمجرد عودتنا من المحروسة سنبدأ إجراءات النقل، كما اتفقنا بالاجتماع الأخير، والوثيقة التي مضيناها.

- سنكون لكم عوناً باذن الله.

قال الهنداوي مبتسماً بعدما تلفت يمينا ويسارا:

- يقولون إن الباشا الكبير شديد ذو طلعة مهيبة، ملكا متوجاً يأمر فيطاع، أما سمعت ما فعل بالممالك قديما بالقلعة، يقولون إنه جمعهم في القلعة وذبحهم.

- ضحك الشيخ إبراهيم، ثم قال: ما لا تعرفه أني كنت سأقتل يومها.

- تَقْتُل، ما هذا الكلام.

- سأحكى لك، فالوقت أمامنا طويل...

(٦٤)

يقول الشيخ إبراهيم للهنداوي:

لقد كان أبي تاجراً كبيراً بالمحروسة، كان يحمي تجارته بالمحتسب والد زوجتي، كانت علاقته قوية بالمماليك الذين عرضوا عليه أن يكون ملتزم هذه الناحية التي نعيش فيها الآن، رفض في البداية، رضح بعد كثير مشورة وكثير إلحاح، تركنا المحروسة وجئنا إلى هنا، بنينا الدوار وعشنا به، مع كبر سن أبي أحب العيش في هدوء الريف بعيداً عن صخب المدن، كان ملتزم الناحية، بل ملتزم مقاطعة بأكملها، كان تحت يده أكثر من عشر بلدان ما بين قرى وكفور، كان عليه أن يدفع مبلغاً للحكومة نظير العشر بلدان، ثم نفرض نحن الضرائب على هذا البلدان؛ لنجمع ما دفعناه وزيادة.

من هذا الدوار الذي بنيناه كنا نعين مشايخ القرى والشاهد والصراف والمشد، مات أبي فورثت عنه الالتزام تباعاً، ولكن أمر التكيف في الريف بدونه كان صعباً علي في البداية، كنت دائم السفر إلى المحروسة والعودة، في ذات الوقت تولى محمد علي باشا الحكم، كان المماليك كثيراً ما يعرقلون طريقه في بسط نفوذه على البلاد، وكثيراً ما كانوا يستنفذون قواه بالحرب، في الوقت الذي كان الباب العالي في إسطنبول كثيراً ما يضغط على الباشا

بضرورة تجهيز جيش لمحاربة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب، كثيرا ما كان يماطل الباشا ويتعلل بمحاربة المماليك، وبعد أن اهتزت هيبة الباب العالي لإخفاقه في محاربة ابن عبد الوهاب، فضغط بشدة ثانية على الباشا، بعد ما عاد من الصعيد وخاض عدة حروب ضد المماليك منتصرا فيها، وتلبية لأوامر الباب العالي أعد محمد علي جيشا بقيادة ابنه طوسون باشا؛ ليخوض حربا مع الوهابيين بالحجاز، خشي محمد علي إذا ما غادر الجيش إلى الحجاز ضعفت قوته بمصر ويتخذها المماليك فرصة ويعودون لانتزاع الحكم من يده، فقرر التخلص منهم، دعا جميع الأمراء والبكوات المماليك إلى القلعة بدعوى تولية ابنه طوسون قيادة الجيش، كنت قد سافرت إلى المحروسة للتداوي، وقررت زيارة شاهين بك كبير المماليك، ودائما ما كنت أوده، فكانت تربطه بأبي علاقة طيبة، استقبلني ورحب بي وأخبرني بدعوة الباشا لهم بالقلعة وحضور تولية ابنه طوسون قيادة الجيش المتجه إلى أرض الحجاز، وألح عليّ في الذهاب معهم فقبلت.

في صباح الجمعة تأخرت على شاهين بك لشدة مرضي، فانصرف هو ورجاله، تحاملت على نفسي؛ كي ألحق بهم، فما أردت أن تضيع مني فرصة كهذه، ولكن حينما وصلت إلى باب القلعة وجدت الأبواب مغلقة ورفض الحراس إدخالني، حزنت حزنا شديدا، ووقفت مع الجماهير المحتشدة في ميدان الرملية بجوار القلعة ننتظر نزول موكب طوسون باشا من القلعة، مرت طليعة الموكب، ثم انقطع تلاحق الصفوف بعدها أغلق باب العزب فجأة، بعدها سمعنا دوي طلقات كثيف وكأنه حرب، عرفنا بعد ذلك تفاصيل ما حدث بالداخل أن المماليك استقبلهم الباشا في قاعة الاستقبال وشكرهم على إجابة دعوته، ثم قرعت الطبول إيذانا بتحرك الموكب وتقلد طوسون باشا اللواء، وبدأ الركب يسير منحدرًا من القلعة في طريقة إلى باب العزب للخروج، والطريق إلى باب العزب كان ضيقا ضيقا وعرا، وكان خلفهم



المماليك، ما إن اجتاز موكب طوسون باشا باب العزب حتى أغلق الباب في وجوه المماليك، وتضامت صفوفهم المتلاحقة، وانهاه الرصاص دفعة واحدة، وحصدهم حصداً، وأتاهم الموت من كل مكان، وهم محاصرون في هذا الطريق الضيق حاول بعضهم الهروب، وذلك بتسلق الصخور المحيطة بالطريق، ولكن كان الرصاص يتاقفهم، وبينما نحن بالخارج وسمعنا دوي الرصاص وصيحات الذعر والاستغاثة، فسرى الذعر إلينا، وسرعان ما ذيع الخبر، فتفرقت الجماهير وأغلقت الدكاكين والأسواق وهرع الناس إلى منازلهم وخلت الشوارع، تجمدت لفترة من هول المنظر وشدة الإعياء بجوار سور القلعة، فإذا بي أجد مملوكاً يرمي بنفسه وهو راكب فرسه من أعلى السور، ولما صار على مقربة من الأرض قفز هو مترجلاً وترك فرسه يتلقى الصدمة فتهدم الفرس لفوره، ومضى الرجل يعدو في طريقه إلى الصحراء، كان أمين بك كنت أعرفه وكان الناج الوحيد من المذبحة، بعدها من شدة الخوف على نفسي عدت إلى القرية، ولم أعد ثانية إلى المحروسة.

- يا الله ما هذا الذي تحكيه، هل هذا يُصدق؟

- لولا أنني رأيت بنفسي لقلت بأن هذه الحكايات أساطير.

لما مرت السفينة على القرية، فإذا بجمع من الفلاحين وقفوا على جسر النهر يرفعون أعلاماً ويحيون العمدة ويهتفون بحياته، التفت ركاب السفينة إلى جموع الفلاحين وأخذوا يتسألون عن هذا العمدة الذي يحبه قومه هكذا، حينها تدخل أحد عبيد العمدة؛ ليحكي لهم عن مآثر سيده، وكيف حمي قريته من العربان الأشرار، وقف العمدة يحيي جموع الفلاحين ملوحاً بيديه، في الوقت الذي لم تختف ابتسامة شيخ العربان، غارت السفينة بعيداً، على البر تقدم عبد الرحيم الذي أخذ يجمع الأعلام من الفلاحين، وأخرج سرّة مال وأخذ يوزع محتواها عليهم، ثم حثهم على الانصراف.

-نجاملكم في الأفراح.

على السفينة قال شيخ العرب:

-الفلاحون يحبونك يا عمدة.

ابتسم العمدة قائلاً:

-الحمد لله، حب الناس رزق من عنده.

أشرعة السفينة مفتوحة بما يسمح لها السير مع التيار، وصدورها يشق صفحة الماء الرائق، على اليمين والشمال بيوت وأناس يتراءون لمن على ظهر السفينة كدمى صغيرة، والنيل يلمع في أشعة الشمس المنحدرة في الأفق.  
قال العمدة:

- خبرني يا شيخ العرب عن أصولكم، وكيف استقرتكم في بحري، ما أعرفه منذ القديم أنكم كنتم مستقرين بالصعيد.

قال شيخ العرب:

-لم أعي تلك الفترة، ولكن سمعت من الوالد أنه لما تدهور الحال في المغرب، رحلنا إلى صعيد مصر واستقرنا به، لم تكف القبيلة عن الغارات المفاجئة التي أزهبوا سكان الريف وأخافوهم وأنزلوا بهم الظلم، فكان الخراب والدمار لبعض مناطق الريف؛ حيث اتلفت المحاصيل والمزروعات؛ مما أضر بمصالح الفلاحين والملتزمين، ولما وقفت الإدارات المحلية عاجزة عن صد تجاوزات القبيلة، اضطر الأعيان والملتزمين للشكوى إلى السلطنة المركزية، وإلى الباب العالي أيضاً، حينها صدر خط شريف من الدولة العثمانية إلى حسين باشا والي مصر آنذاك بأن يسير ومعه الأغوات للتصدي لقبيلة ابن وافي المغربي على أن يعمل فيهم القتل والأسر حتى يجلبهم عن أرض مصر، ولكن يبدو أن الأغوات من رجال الحامية العسكرية العثمانية كانوا يخشون أمر هؤلاء العربان؛ لأنه عندما قرئ عليهم الخط الشريف في الديوان أجابوا بالامثال ظاهرياً،

وأخذوا يسوفون الباشا، وتعللوا بكثير من العلل لعدم سفرهم لحرب  
العربان فقالوا لا يمكن سفر الأبعد دخول الحجاج وتسلم المحمل، ولما  
قام المحمل تعللوا بالنيل، وقالوا لا يمكن سفر مالم يهبط النيل وتسلك  
الطرقات، جمع حسين بك باشا الأمراء والأغوات وناقشهم في أمر العربان  
فاستقر الجمع على إخراج تجريده، وصحبة ألف نفر من الوجاقات،  
قاومت القبيلة هذه التجريدة مقاومة عنيفة، ومن يومها شدت وطأة القبيلة  
على الفلاحين..

نظر الهنداوي ناحية الزبير، وقال مخاطبا الشيخ إبراهيم:

- عبدك هذا؟

- نعم.

- ما اسمه؟

- الزبير.

- ألا تزوجه يا عمدة؟

ضحك العمدة، ولم يعقب.





قرار الحرب لم يكن سهلاً على الشيخ إبراهيم، فالمخاطرة عالية جداً، ومن الوارد أن تميل دفعة الحرب تجاه أولاد الوافي، حينها ستحول البلد بأكملها إلى ساحة دم تزهق فيها الأرواح، ويعمها الخراب والدمار، خراباً تنعق فيه البوم بين جثث القتلى، ظل يوازن بين المخاطر ومميزات النصر، يمكن التغلب على المخاطر بأن يكون على أهبة الاستعداد مع كثرة الإنفاق، ثم ينعم هو بمميزات النصر وحده، سيكون حامي حمى القرية وسيدها، البطل المغوار الذي هزم غريمه الشرير، غير مستبعد أن يكون موروثاً من مورثات الأدب الشعبي، فسيذكره شعراء الربابة مع أبي زيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، وعنتر بن شداد، والوزير سالم، إذا كانت هذه مميزات الحرب فالأمر يحتاج إلى مزيد من التأني وحسن تخطيط، فالتخطيط الجيد يسهل تحقيق النصر، في البداية كان ولا بد من معرفة متوسط أعداد فرسان أولاد الوافي الذين يسطون على القرى، فأرسل عبد الرحيم الذي طاف على البلاد التي هوجمت، فكان الرد:

- سبعون فارساً، ثمانون، تسعون.

وعن وقت هجومهم ففي أيام الفيضان لانشغال البوليس، عرف إذن متوسط أعداد المهاجمين ووقت هجومهم، أولاد الوافي عربان جلفاء تربوا في الصحراء يحسنون استعمال السيوف والرماح والبنادق، كما يجيدون ركوب الخيل فيحسنون الهجوم والكر والفر، والفلاحون لا يجيدون سوى حمل الفأس وركوب الحمير، إذن، ولا بد أن يقيم تحالفات بمن على شاكلتهم حتى تكون دفتي الحرب متكافئة، فاختر من القبائل من هم شديداً العداوة لأولاد الوافي، وقام باستئجار مائة رجل، كان الأمر يستوجب السرية التامة حتى لا يكون العدو على أهبة استعداد، يتبقى استفزازهم لتعجيل الأمر، فخرج عبيده ملثمين وعلى رأسهم عبد الرحيم للقيام بهذه المهمة، اقتربوا من خيامهم حين كان فرسانهم في حملات السلب المعتادة، قاموا بالسلب والنهب وتعمدوا ذكر اسم قرية كوم البقر أمام الشيوخ الموجودين، انصرف عبد الرحيم ورجاله، ولما عاد فرسان القبيلة اجتمع مجلس القبيلة وقرروا السطو على القرية، لا سيما، وهم في موسم الفيضان وانشغال رجال البوليس.

كثيرا ما كانت تتردد نصائح المماليك في رأس العمدة أثناء تدريبهم له، حينما كان صغيراً:

- قدم طعماً لاستدراج عدوك، أسر اللواء المعادي أفضل من تدميره، القتال والانتصار ليس قمة المهارة فالتفوق الأعظم هو كسر مقاومة العدو دون قتال، القاعدة تقول:

إذا كانت نسبة قواتنا إلى العدو عشرة إلى واحد، فحاصر العدو، وإذا كانت خمسة إلى واحد فهاجمه، وإذا كانت الضعف فيجب تقسيم الجيش إلى نصفين، النصف الأول قد يستخدم في القتال، والنصف الثاني يستخدم في الخداع أو نصف يهاجم من المقدمة ونصف يهاجم المؤخرة. وإذا كانت النسبة متكافئة سيفوز القائد الأقدر، حين تحاصر العدو اترك له فجوة

للهرب، فالضغط بقسوة يجعله يستأسد في القتال، القادة الأفاضل من يستغلون لحظة تشتت جنود العدو فيحولون دون تجمعهم مرة أخرى، فيعملون على تعميق الفرقة والفوضى بين صفوفهم، المقاتل الجيد يستدرج العدو إلى أرض المعركة، ولا يدع العدو يستدرجه.

أخذ الشيخ يضع خطة الحرب، وعن جغرافية المكان فقد اختار الجرن المخصص لدرس الغلال، فالجرن يحيط به البيوت فيسهل التحكم في منافذه ومحاصرة العدو أرضاً، ومن خلال المنافذ، وأعلى السطوح.





قال الشيخ الهنداوي للعمدة الكبير:

- اعتاد العربان أن يتتهزوا فرصة الفيضان عنما تكسو مياه النيل أراضي الحياض فيصبحون في مأمن من وصول قوات من العاصمة لردعهم وعندئذ يغيرون على القرى، فيذبحون الفلاحين ذبح المواشي، ويستولون على ما تصل إليه أيديهم من غلات ومواش، تكثر غارتهم وقت الحصاد لنهب الغلال، ورغم ما للقبيلة من مساوئ إلا أنه كان لنا تاريخ مشرف في التعاون مع المماليك ضد الفرنسيين، كنا نحن والهنادي وأولاد علي من العربان الذين لبوا دعوا إبراهيم بك، بأن نكون في المقدمة بنواحي شبرا وما ولاها للتصدي للفرنجة، كنت حينها صغيرا، وأوينا الأمراء المماليك وقدمنا لهم المؤن، وكنا نحمل المكاتبات السرية بين المماليك وأنصارهم في القاهرة، وحضر أبي اجتماع بونابرت بثلاث عشر قبيلة وطلب بونابرت أن نمده بثلاثمائة جواد وخمسمائة جمل يدفع ثمنهم نقدا، وأن يؤجر ألف جمل ولم نفذ أي شيء من هذا الاتفاق لما وصلتنا رسالة من علماء القاهرة ومشايخها تدعو جميع العربان إلى الجهاد ضد الغزاة وعدم التعاون معهم، بعدها وجه نابليون سلاح الهجانة لمطاردة جميع القبائل التي لم تبد تعاوننا.

قدم العربان في الصباح إلى القرية بخيولهم وجمالهم يحملون عليها أثاثهم، خيام من القماش والشعر، ورحى من الحجارة لطحن القمح وغلايات القهوة النحاسية، وقدر معدنية وأطباق الخشب، أجولة من الصوف مكتظة بالفحم، نصب العربان خيامهم على خط مستقيم، وقف المأمور والشيخ إبراهيم والمساحين الذين يحملون القصبات يقيسون بها مساحات، ويثبتون في دفاترهم. استقر العربان وابتنوا لأنفسهم بيوتا من اللبن بديلا عن الخيام، يغزلون الصوف ويسبغون الأنسجة، يأكلون خبز الشعير مع لبن الماعز والتمر، خبز على هيئة أقراص توضع تحت أشعة الشمس..

كان أمر الفلاحة شاقا عليهم في البداية إلا أنهم كانوا مجبرين على الاستمرار، بمرور الزمن أخذوا يندمجون مع الفلاحين يجالسونهم ويتعلمون منهم فنون الزراعة، بل تزوجوا من بنات الفلاحين، إلا أنهم ظلوا متشددين على عدم تزويج بناتهم لهم.

بعد عدة سنوات استيقظت القبيلة على صراخ وعويل، مات الهنداوي شيخ القبيلة لثوره، أقيمت المآتم ثلاث ليال، ذبحت فيها الذبائح وتوافد المعزون، أهالي القرية والعمدة والمشايخ والأعيان وشيخ الخط وناظر القسم،

وبعض قبائل العربان الذين كانت تربطهم علاقة طيبة بالهنداوي، ظهرت  
أمارات الحزن على الرجال، بينما النساء أقاموا المنادب، استمر الحزن عاما  
كاملا، لا تُقام فيه الأفراح ولا يُحتفل بالأعياد.  
ظلت القبيلة دون كبير إلى أن تقدم حربي الولد الكبير للهنداوي بعرضحال  
إلى العمدة الشيخ إبراهيم، يلتبس فيه تعيينه شيخا عوضا عن ابيه المتوفى،  
فكان رد العمدة:

- إذا قدمت العرضحال هكذا إلى المديرية، فسيأخذ الأمر وقتا طويلا، فلا بد  
للسلطات أن تتحرى عنك، فهل أنت أرشد أخوتك؟، وأكثرهم صلاحية  
للمنصب أم لا؟، ولا بد من رأي العمدة، وهو عين الحكومة على الزمام،  
وعلى فرض أنني خالفت رأيي فيك، وقلت إنك مناسب، بعدها يصدر الأمر  
الخيديوي بتعيينك كبيرا على القبيلة، ويمنحونك الخلعة والشال، ولكن  
يمكن اختصار عليك هذا الوقت كله، وألحق بهذا العرضحال خطاب تزكية  
مني لك بأنه ليس من هو أكفأ منك لهذا المنصب، وإن كنت لا أرى إنك  
كفاء لهذا المنصب، فأنا أعرفك جيدا ولدا متهورا أهوج ليس فيك من أبيك  
شيء، وما تعلمت منه شيئا.

- وما المطلوب مني؛ كي تزكيني؟.

- لقد صرفت كثيرا على أمر توطينكم، كنت في ظهركم حتى اخضرت  
أرضكم، وأصبحتم أصحاب أملاك، أراض خضراء على مد البصر، أرض  
اكتسبتموها دون أن تدفعوا فيها بارة واحدة، بعد أن كنتم مشتهين في  
الصحاري تلدغكم العقارب والحيات لا مأوي لكم سوى الخيام. حينما  
تشتد الرياح تقتلع الأوتاد، فتصبحون حينها في العراء، وأكلكم كان من جهد  
غيركم، تسطون على الفلاحين وتنهبون قوتهم وبهائسهم، وإن اعترض  
أحدهم ذبحتموه ذبح الخراف، وحن وقت سداد الديون.  
- ما تأمر به نافذ.



- العشر من حاصل إيراد أرضكم.

امتعض حربي لهذا الطلب.

- ولكن يا عمدة لقد انتهت الخمس سنوات التي أمهلتنا فيها الحكومة، وبدءًا من المحصول القادم سندفع للحكومة العشر، وزكاة الزروع نصف العشر، ولك العشر فهذا سيكون كثيرًا.

- عشر الحكومة فهو نظير الأمن، وحفر الترغ حتى يصلك الماء، ونصف العشر الزكاة هو حق الله، هل تستكثر حق الله فيما أعطاك، والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، ألا تريد جنة الآخرة؟... ألا إن سلعة الله غالية.

- والعشر الثالث؟

- هو نظير جنة الدنيا، ثمن كرسيك، ألا تحب أن تكون ملكًا متوجًا تأمر فتطاع، فضلا عن الدين الذي يتوجب عليكم دفعه، فقد اقتطعت من قوتي وقوت أولادي؛ لأدفع للعربان الذين دفعوكم للتوطين دفعا.

- أريد الزواج من إحدى بناتك.

- لا أزوج بناتي لأعراب أجلاف.

أخرج حربي لهذا الرد، وقال:

- لا مانع لدي من عشر المحصول لمدة عام نظير خطاب الترقية.

- كلا، بل لمدة عشر أعوام.

في ليلة صيفية مقمرة تتلألأ في سماءها الكواكب اللامعة، فاض النيل وارتفع منسوبه وأوشكت الجسور أن تنقطع وتتدفق مياهه وتغمر الأرض وتكتسح الزرع والضرع، لم ينم شيخ الغفر عرفة الذي جمع كل الغفر ووزعهم على الجسور الضعيفة يحرسونها، وكى يشحذ همهم أمر لهم بخبز ولحم من الدوار، أوقد ركية نار كبيرة أضأت المكان وغرس فيها إناء نحاسي ممتلئ بالماء، وضع حبات القهوة في ملعقة كبيرة ودسها في النار يحمصها، طحنها في هون نحاسي صغير، وألقى بالمطحون في الماء المغلي، اقترب من فوهة الإناء، وأخذ يستمتع برائحة غليانها إلى أن صبها في أكواب فخارية دار بها على الغفر في أماكنهم المتفرقة يناولهم إياها، ويتابع بنفسه الجسور الضعيفة، ومدى مقاومتها لضغط الماء، ولم يفتر لسانه عن قوله:

- استرها علينا يارب داحنا غلابة.

أخذ يرمق الجسور بعناية حتى إذا ما استشعر في أحدها ضعفاً، وكاد الماء أن يغلبها هرع إلى القرية يطلب المدد من الناس؛ كي يقوون الجسر بالتراب والأحجار وأعواد الذرة والحطب، من المفترض أن يبات أهالي القرية ككل عام في هذا الوقت بالقرب من الجسور تحسباً لانهباء أحدها إلا أنه أضناهم

جمع كيزان الذرة طوال النهار في أراضيهم تحسبًا لانهباء الجسور، فيتدفق الماء إلى أراضيهم فيغمرها، وتهلك ثمرة جهدهم فناموا كالقتلى على سرائرهم البسيطة، بعدما انتهى عرفة من توزيع القهوة استشعر رغبة في قضاء حاجته فدلّف إلى إحدى غيطان الذرة، ودخل إلى إحدى القنوات التي تغذي الخطوط، وما إن رفع جلبابه وجلس القرفصاء يقضى حاجته حتى نما إلى سمعه همسًا من بعيد، دفعه فضوله لتتبع هذا الهمس فقرر الاقتراب منه، إلا أنه توقف حينما تملكه الخوف ظنًا بأنها النداهة تستدرجه، إلا أنه كانت الغلبة لفضوله، فظل مستمرًا في السير بحرص حتى اقترب من الصوت، فسمع امرأة تتحدث إلى رجل قائلة:

- ما هذا الصوت، أخشى أن يكون هناك من يقترب منا.

- لا تخافي، ربما كلب يتجول، البلد نائمة كالقتلى، طوال النهار يسعون على آخر جهدهم؛ كي يجمعوا ما يستطيعون من كيزان الذرة تحسبًا لفيضان النيل، فالنيل هذا العام لا يبشر بخير.

- وأنت طبعًا لست منهم، حلاق صحة مستخدم لدى الحكومة، تتقاضى راتبًا كل أول شهر، ولا تحمل هما، أفاض النيل أم غار مأؤه.

- الله أكبر عليك، خمسة وخمسة.

ثم ضم الرجل المرأة إليه، وقال:

- كم أنت جميلة يازينة، أنت خسارة في الأسد العجوز، لا بد لكى من فارس شاب يكبح جماحك ويرودك.

ضحكت زينة قائلة:

- أنت الفارس، وحق لك أن تزوجني.



قال الرجل:

- الزواج يقتل الحب يازينة، منذ أول يوم دخلت فيه القرية، ونحن نتلاقى هاهنا بشغف، ماذا لو تزوجنا، لأصبحت مملّة، مكون أساسي من مكونات البيت كالحصيرة أو الزير.
- يا حسنين أخشى أن يفتضح أمرنا وسط هذه الزراعات، حينها سيقتلني العمدة هذه المرة، ولن يغفرها لي كالسابقة.
- أي مرة سابقة!
- دخل عليّ العمدة أنا وعضين ابن عمي فقتله.
- تحسس حسنين رقبتّه، وازدرد ريقه قائلاً:
- ماذا تقولين؟ ألم يقتل في الطاحونة أثناء عمله؟
- كلا، بل قتله العمدة على قادوس الطاحون، وأجبر أبي وجدتي على الشهادة زوراً بالتعاون مع مأمور المركز.
- سكت حسنين من هول المفاجأة، ثم قال:
- أنا لا أستطيع التخلي عنك يازينة، أنا أحبك.
- إذن خلصني من العمدة، وحينها سأرثه أنا والولد، وتزوج وتكون أنت سيد الدار، ملك متوج على خمسمائة فدان.
- وعرفة؟ من الممكن أن يكون وصياً على الولد.
- عرفة أخو العمدة اسما فقط، أما أوراقاً فهو ابن الزبير، العبد خادم العمدة الكبير، والمحكمة لاتعترف سوى بالأوراق، وعرفة مقيد حتى الآن مستخدم في الحكومة، كشيخ غفر باسم عرفة الزبير، وليس عرفة إبراهيم البنهاوي.
- وكيف أتخلص من العمدة؟
- سأمكنك من دخول الدوار، ثم نقتله سوياً خنقاً؛ ليظهر موته طبيعياً.

- يعز علي قتل العمدة، فما أنا فيه من خير فبفضله، فهو الذي رشحني حلاق  
صحة.

- لا تحمل جميلاً لأحد دون داع، كل ما في الأمر أن مكتب الصحة طلب  
من العمدة ترشيح حلاقاً يحسن التعامل مع الموس، ومن الطبيعي أن  
يرشحك أنت لأنك الحلاق الوحيد في القرية.

- إذن دعيني أفكر وأبلغك، ودعينا ننصرف الآن، أخشى أن تنهار إحدى  
السدود، فيخرج الناس من بيوتهم، وينكشف أمرنا.  
هب عرفة قائماً، وجرى في القناة التي تتوسط الغيط، وخرج إلى حماره، وهو  
صامت من هول الصدمة.



(٦٩)

تنحى عرفة جانبا يفكر في كلام زينة.  
- صدقت المرأة حينما قالت بأني لن أراث أي شيء من العمدة بموته، فبهي  
الزوجة وأنجبت الولد، حتى الفدان الذي ورثته تنازلت عنه بمحض إرادتي  
لينقده يوم حادثة الطاحون، ووعدني أكثر من مرة أنه سيعوضني بعدة أفدنة  
في الأبعدية إلا أنه لم يفعل!!!، إنه منشغل منذ أن أصبح عضواً بمجلس  
شورى النواب.

ثم نهر نفسه قائلاً:

-كف عن هذا الكلام يا عرفة، ألم تستمع بأذنك تأمر الزانية مع الخلاق على  
قتل أخيك!؟؟

ثم عاد إليه شيطانه ثانية

-إذا مات العمدة في أي وقت فقدت وظيفتك، وورثته العجورية وولدها  
وعشيقها، حتى بيتك هو جزء من الدوار، وسيطردونك منه وأنت ابن العمدة  
الكبير، وأخو عبد الرحيم، ولا تستطيع أن تثبت ذلك.

- مالعمل إذن؟



قال عرفة بتأسي:

- قلبي عليك يا أخي، الكل تأمر عليك، ولد الهنداوي، وولد الرحيمي، وجابر ولد عمك، حتى زوجتك والحلاق الذي أحسنت إليهما، والآن أخوك سمع بأذنه تدابير قتلك بأذنه، وبدلاً من أن يهرع لتنيهك، يتساءل: أين موقفه من التركة حين موتك؟  
ثم عاد إليه شيطانه قائلاً:

- ماذا لو تركتهم يقتلونه، ثم ضببتهم في غرفته متلبسين، حينها يموت العمدة ويسجن الحلاق والعجريّة، وبشهادة عدول باعتراف العمدة أنني أخوه أكون أنا الوصي على الولد.  
تخيل عرفة أخاه العمدة، وقد انطلقاً نور عينيه، وسكن جسده ومالت رقبته على كتفه، وقد خارت قواه تماماً، وراحت دماؤه الساخنة تنساب في هدوء، فبكى ونهر نفسه مستعيذاً ونهض.



(٧٠)

أحضر عرفة ركوبتين، وانتظر القطار العائد من مصر المحروسة، ولما طال به الانتظار ظل يتساءل، ويكرر أسئلته على ناظر المحطة الذي سئم منه وضاق به، وجاوبه متأففا:

- القطار على وشك الوصول.

جاء القطار هادرا ينفث دخانه الأسود المعتم من أعلى قمته، والدخان الأبيض من بين عجلاته، تطلع عرفة إلى وجوه العائدين ودقق النظر في جموع النازلين حتى صاح بعفوية.

- عبد الرحيم ياخويا، أنا هنا..

اضطرب قلب عرفة، وأخذ يحتضن العمدة، ويبيكي، تعجب العمدة لهذا البكاء.

- لم البكاء يا عرفة، هل جرى لسليمان ابني شيء؟

- لا تقلق يا أخي كلنا بخير، وسليمان بخير.

- ولم البكاء إذن؟

- لا شيء.

حمل عرفة حقيبة العمدة على كتفه، وتوجها إلى الركوبتين، امتطى كل منها واحدة موجهها إياها إلى القرية، قال عرفة:  
أخبار مجلس أفندينا إيه، هو صحيح المجلس دالمعارضة أفندينا؟  
ضحك العمدة، وقال:

وقال في أول الجلسة أفهمنا شريف باشا وزير الداخلية أن المجالس النيابية الأوروبية منقسمة دائما إلى حزبين: حزب يعضد الحكومة، وحزب يعارضها ويقاومها، وأنه يجدر بنا، أن ننقسم إلى حزبين: حزب مع الحكومة، وحزب عليها، فيجلس رجال حزب الحكومة على مقاعد اليمني، ورجال حزب المعارضة على مقاعد اليسار، فتسابقنا جميعا على الجلوس على اليمين، من يجسر على معارضة أفندينا يا عرفة إذا كنا نهنز لقدم المأمور.

أكمل العمدة، وهو يهز ساقيه يحسن ركوبته على السير:  
- أحوال البلد إيه، النيل فاض ماؤه ولا يبشر بخير، وما أخبار السدود؟  
ظلمت تلك الأيام قلقا لا يغمض لي جفن.  
- لا تقلق يا عمدة، ما نمنا الليل الأيام الماضية أنا والغفر نحرس السدود،  
واستعنا بالأهالي في تدعيمها.  
- ومشايخ القرية؟

- تملصوا من المسؤولية يا عمدة كالعادة، لم يكلف أحد منهم نفسه ويأتي يلقي علينا السلام.

- وجودك بجواري يا عرفة هو الشيء الوحيد الذي يطمئني، أنت سندي يا عرفة، أنت أخي وابني.

اضطرب قلب عرفة لهذا الكلام، وقال:

- أنت سندننا في الدنيا دي يا عمدة، ربنا يخليك لي ولا بنك سليمان.

- وأخبار زينة إيه؟ إياك تكون خرجت من الدوار؟



- تخرج إزاي؟ دا أنا كنت كسرتلها رجليها.  
قال العمدة: براوه عليك يا عرفة، غلبانة البننت زينة شافت الشقا طول عمرها،  
وان كان على اللى حصل، فغلطة وتابت منها.  
سكت عرفة، ولم يعقب  
أعاد العمدة الكلام، يريد أن يطمئن نفسه.  
- مش كده يا عرفة؟  
- أكيد يا عمدة، كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، وربك غفور  
رحيم.

ارتاح قلب العمدة لهذه الإجابة.  
عبد الرحيم: وما أخبار جابر؟  
عرفة: وهل له عين يرينا وجهه الخائن.  
عبد الرحيم: مازال قلبي يوجعني يا عرفة، أتكون الخيانة من أقرب الناس منا  
ولد عمنا.  
عرفة: أنت طيب يا عمدة بزيادة، وهذا طمع الكل فيك، لم يكن أبوك هكذا.  
عبد الرحيم: ومن له قلب كقلب أبيك يا عرفة، كان جبارًا، هل تعلم أن ولد  
الهنداوي كان يورد كل عام إلى مخازن الدوار عشر ما تنتجه أرض العربان،  
وانقطع عن هذا بموت أبيك.  
عرفة: مقابل ماذا؟

- من غير مقابل، كان أبوك يوهمه أن هذا مقابل أن يتيقن شيخا على العربان،  
ولكن في الحقيقة أنه كان يريد أن يذله أمام قبيلته، وحربي كان يعرف هذا فهو  
لم ينس له ذلك.



(٧١)

بزغ القمر يشق صدر الليل بنور راح يثثه في كبد السماء، وقد جاوز الوقت  
منتصف الليل بساعة أو ساعتين، امتطى عبد الرحيم حماره يشق به طريقا  
ضيقا وسط الحقول؛ ليختصر الطريق المؤدي إلى القرية بعد سهرة قضاها  
في بورصة يني، أزيز حشرات مزعج ونقيق ضفادع كثيف وصرير الجنادب  
حاد، ونباح كلاب من بعيد، الطريق مقطوع تماما من البشر والبيوت، فرك  
عبد الرحيم يديه من شدة برد قارص غلف الناحية يومها، وقد تلفح بشال  
كشميري، وفي أثناء سيره نظر أسفل يساره؛ ليراقب ظل حماره الناتج عن  
ضوء القمر، وقال متفلسفا:

- سبحان الذي خلق الظل، ها هو ظل الحمار، وها هو ظلي يعلوه.  
تلجم عبد الرحيم، وسكن لما رأى ظلا خلف ظله، ويبرز من رأسه عمود  
مدبب، لا بد وأنها قرون.  
عاد عبد الرحيم برأسه إلى الأمام، وقد نشع عرق الرهبة على جلده، وبالكاد  
ازدرد ريقه وحاول التقدم بجسده إلى الأمام حتى لا يلامس هذا الكائن  
خلفه.

باغت العمدة هذا الكائن، ونزل من على الحمار فجأة مهرولا عكس اتجاه الحمار، ونظر خلفه ليراقب هذا الكائن؛ ليجد الحمار مستمرًا في سيره، ولا يعلوه شيء!!، توقف عبدالرحيم متهما نفسه بالخرف، وعاد إلى حماره، وامتطاه من جديد، استمر في السير؛ ليجد فجأة حماره يسير أمام الحمار الذي يمتطيته!

نظر الرجل أسفل منه؛ ليجد نفسه يركب الهواء، ثم سقط الرجل على الأرض!

نهض الرجل وجرى ناحية حماره، وهو يحاول السيطرة على ركبتيه اللتين أصبحتا لا تقويان على حمله من شدة الخوف، تحسس حماره جيدا، وتأكد بأنه أسفل منه، ليقف الحمار فجأة أمام نهر عريض يشق الطريق! - من أين أتى هذا النهر، كل يوم أنا في هذا الطريق، ولا نهر فيه، هل أخطأت الطريق؟

هبط عبد الرحيم من على حماره، ليجد على الضفة الأخرى من النهر امرأة بيضاء تمشط شعرها الأصفر الذهبي الكثيف اللامع في ضوء القمر، نادى عليه عدة مرات، حاول أن يجيبها إلا أن صوته لا يخرج، بعد عدة محاولات منه أجابها:

- ماذا تريدين؟

- تعال اجلس جنبي.

- ماجاء بك هاهنا في هذا الوقت، وهذا المكان المقطوع؟

- جئت؛ لأراك يا عبد الرحيم.

- تعرفيني اسمي.

- وكيف لا أعرف اسمك، وأنت أشهر عمدة في الناحية، طول وعرض

وجمال وهيبة، هيا تعال، واجلس جنبي.

- كيف أعبّر، ولا يوجد جسر؟



أجابته:

- اعبر على قدميك، فالنهر ليس عميقًا.

رفع عبد الرحيم جلبابه، وهم ليعبر النهر إلا أنه توقف لما جذبته أحد الأشخاص من الخلف

- رايح فين يا عبد الرحيم!

ارتعد قلب عبد الرحيم أكثر، والتفت خلفه، فاذا بالشيخ إبراهيم يجذبه من الخلف قائلاً:

تعال هاهنا.

تعجب عبد الرحيم.

- أبي؟ آجاء بك الآن إلى هنا؟

الشيخ إبراهيم: إلى أين ستذهب؟

- سأعبر النهر.

ضحك الشيخ إبراهيم عاليًا، وقال:

- أي نهر؟، لا يوجد نهر يا عبد الرحيم، دائما مانهيتك عن طبيبتك الزائدة، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

- ها هو النهر، ألا تراه؟

أمسك الشيخ حجرا، وألقاه في النهر، فلم يحدث صوتا أو حلقات في النهر.

- هل سمعت صوتا نتج عن إلقاء الحجر في النهر؟

عبد الرحيم: كلا.

قال الرجل: إذن لا نهر هاهنا، ماهو إلا فخ تنصبه لك العجرية، اقتلها يا عبد الرحيم، اقتلها يا عبد الرحيم... اقتل رأس الأفعى.

أخذ عبد الرحيم يتقلب في سريره مستيقظا على يدين تطوقان رقبته، وأخرتين تمسكان قدميه.

(٧٢)

أمسى الليل رماديا يغطي البقاع كلها، ويزع القمر يشق صدر الليل بنور، راح  
يثره في كبد السماء، جلس عرفة أعلى بيته متخفيا وعينه صوب باب دوار  
العمدة في انتظار زائر مرتقب، أخذ يقلب عينيه في السماء المرصعة بملايين  
النجوم المتناثرة تارة، ثم إلى باب الدوار، ثم إلى الشارع؛ فإذا بالضيف  
المرتقب لاح في الأفق يمسح بعينه الأفق ويتلفت حوله، حتى اقترب من  
باب الدوار فتحسس مسدسه ووضع يده على باب الدوار فإذا به مواربا  
لاستقبال الضيف، دخل حسنين من الباب، فنهضت زينة من على كرسي  
بجوار الباب التي أغلقته في الحال.

همس حسنين قائلا: أنام العمدة؟

ردت بالإيجاب، فصعدا سويا في هدوء، وتقدمت زينة إلى الغرفة تتأكد من

استمرار غطيته، ثم خرجت تشير إلى حسنين:

-هيا تعال.

اقترب حسنين من رأس العمدة، ومد يديه يطوق بهما رقبتيه، بينما ثبتت زينة  
قدمي العمدة بيديها، دخل عرفة من الزريبة، وفي هذه اللحظات عاش عرفة  
في صراع مع نفسه، هل يتقدم الآن، فيفسد عليهما خطتهما، أم ينتظر قليلا

حتى يقتلا العمدة، ثم يمسكهما متلبسين فيتخلص منهما ومن العمدة ويكون هو الوصي على الولد، قلب عرفة يرتجف يكاد يقفز من صدره. استعاد من تلك الوسواس، وهجم في الحال على الباب، ففتحت درفتيه على مصرعيهما، العمدة يحاول التملص منهما بكل جسده، والعرق يتفصد من كل جسده، حسنين يشد الخناق على عنقه وزينة تمسك قدمي العمدة بشدة، في الحال صوب عرفة ماسورة بندقيته تجاه حسنين وداس على الزناد، فأرداه قتيلا، وضرب زينه على رأسها بكعب بندقيته فغشي عليها، أخذ العمدة يتحسس رقبتهن ويستنشق هواء الغرفة يسترد به روحه، وهو يرمق ما حدث مرهولا، بينما جلس عرفة على السرير يبكي بحرقة مؤنبا نفسه على تأخره لهذا الحد، وكيف فكر لو هلة أن يتركهما يقتلاه.

بعد أن أفاق العمدة من هول الصدمة نظر إلى عرفة قائلا:

- ما هذا يا عرفة، لماذا أنت وحسنيين في غرفتي، ولماذا حاول هذان قتلي؟  
- أشار عرفة على زينة، تلك الزانية اتفقت مع منكر النعمة هذا على التخلص منك.

- وكيف عرفت بوجوده هاهنا؟

- خيلت به ذات مرة يدخل الدوار أثناء سفرك، ومن يومها وأنا أراقب باب الدوار، فلما أتى اليوم في وجودك عرفت أنهما نويا التخلص منك، حاولت اللحاق به، فوجدت باب الدوار مغلقا، دخلت من باب الزريبة الخلفي..  
قال العمدة:

- أنا السبب، أويت حية في بيتي ظننت لو هلة أنها تابت، كان علي أن أقتلها في اليوم المشؤم.

- ها هي أمامك اقتلها.

سكت العمدة ولم يعقب، فلما رأى عرفة خورا في رغبة العمدة نهض قائما وصوب بندقيته ناحيتها، نهزه العمدة قائلا:

- كف عن ضرب الرصاص في الليل يا عرفة، أتريد أن تفضحنا؟، اتركها حتى تفيق وسأقتلها أنا.



أمسك عرفة قلة ماء خفيفة، وهشمها فوق رأسها ففاقت، أخذت تستعطف  
العمدة قائلة:

- مظلومة يا عمدة، حسنين أجبرني على ذلك، وإلا قتلتني.  
نهض العمدة وطوق رقبتها بحبل قصير، وتتردد كلمات الشيخ في أذنه:  
إذن، لا نهر هاهنا، ماهو إلا فح تنصبه لك العجورية، اقتلها يا عبد الرحيم،  
اقتلها يا عبد الرحيم... اقتل رأس الأفعى. كفي عن الكلام يا ابنة الحرام.  
- أقبل قدمك يا عمدة لا تقتلني، فأنا أم ولدك.  
- هل تعتقدين أنه ولدي حقاً؟  
و شد طرفي الجبل بشدة حتى احمر وجهها، وأخذت تقاوم برجليها إلى أن  
سكنت تماماً.

قال العمدة:

- هل تقدر ما نحن فيه الآن يا عرفة، نحن في مصيبة.  
قال عرفة: لا عليك، سأخلصك أنا من جثتيهما، والعجورية لن يسأل عنها أحد  
بعدها طردت جدها وأبوها في اليوم المشؤم، وتوعدتهما حال إتيانهما مرة  
أخرى.  
- إذن هيا، لا وقت نضيعه.

اقترب عرفة من جثة حسنين يجرهما؛ إذ سمعا امرأة تصرخ خارج الدوار،  
فتح عرفة الشباك وطل عليها، وقال:  
- إنها زوجة حسنين، من أت بها، وكيف عرفت.  
قال العمدة:

- لا بد، وأنها كانت تتبعه، وتأكدت من دخوله الدوار، ولما سمعت صوت  
البندقية تأكدت بأننا قتلناه، سيأخذها الرحايمة زريعة لتخلص منا، بسرعة  
هيا ندفنهما قبل قدومهم.

جر العمدة جثة زينة، بينما جر عرفه جثة حسنين الي الزريبة بعدما تخلص من الدماء، ترك العمدة الجثتين لعرفة الذي أمسك الفاس، وأخذ يقطع في أرض الزريبة خندقاً وقذفهما فيه، بينما عاد العمدة يمسح ماتبقى من آثار الدماء، ثم خرج إلى المنذرة متصنعا آثار النوم متظاهرا بسخطة من زوجة حسنين، وقد اجتمع الرجال والنساء حولها.

- ماذا بك يا امرأة، أجننتي؟

- حسنين يا عمدة، دخل إلى دوارك بعدها سمعت صوت طلق، لا بد، وأنتك قتلته.

- هل رأيت يبعينك يدخل باب بيتي؟ ولم أقتله؟

- كلا، ولكن رأيت يدخل إلى هذا الجرن، ولا يوجد باب يطل على الجرن سوى دوارك.

- وأنا أقول لك لم يدخل بيتي، وكيف أؤذي حسنين، وليس بيننا سوى كل ود، أنسيت أني من رشحته حلاق صحة لدى مكتب الصحة يا امرأة؟ ظل العمدة يماطل المرأة حتى خرج عرفة إلى المنذرة بجوار عبد الرحيم، وأشار له بالتمام، فاطمأن قلبه، وقال لها:

- ادخلي، وحدك الدوار ابحتي عن حسنين كيف شئت، ولي حساب معكما بعد ذلك.

- نعم، سأدخل.

دخلت السيدة تبحث في غرف الدوار بلهفة، تفتح الغرفة تلو الأخرى، ثم فتحت الباب المطل على الزيبة، لفت نظرها قطع مشحذ في أرضية الزيبة إلا أنها لم تكترث ظناً منها أن هذا القطع بداية لتنظيف الزريبة بأكملها، ثم خرجت تجر أذيال الخيبة.

قال العمدة:

- لم تجدي شيئاً؟، لم الفضائح في الليل، عودي الي بيتك ربما تجدين زوجك هناك، وحينما تجدينه خبريه إنى أحجاجة في الصباح، وحسابي معه حينما يأتي.

- أنا آسفة يا عمدة، يادي الإحراج يا ولاد.

صاح عرفة:

- هيا يارجال عودوا إلى منازلكم، لقد أزعجتكم عمدتكم ونائب مجلس شورى النواب، أتريدونه يشتكيكم إلى أفندينا شخصياً.





## (٧٣)

في الصباح جلس العمدة في مندرته حزينا يفكر فيما حدث ليلة أمس، الدنيا تكيل له المصائب، الواحدة تلو الأخرى دون هدنة ولا تفاوض، أتى عرفة بصينية نحاسية بها أطباق الجبن والعسل والقشدة وأرغفة خبز، ووضعها أمام العمدة، ثم جلس بجواره:

- مد إيدك يا عمدة.

- نأكل، فإطاقة بي لطعام، أين الولد؟  
- مع صابحة.

سكت عرفة قليلا، وقد أغرورقت عينا العمدة بالدمع، فتماسك قائلا:  
- هون على نفسك يا أخي، فالمؤمن مبتلى، ولا تؤرق نفسك بالتفكير فما تم كان دفاعا عن النفس، أتوا إليك يريدون شراء، لكن الله سلم، المهم أن تأخذ حذرنا بعد ذلك، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.  
- لن تسكت المرأة يا عرفة، فقد دخلت أمس الزريبة، ولن تسكت لأبد، وأنهارأت القطع المستحدث في أرضية الزريبة.  
- لا تغلق يا عمدة لو كان لفت نظرها لتكلمت حينها.

- لم تتكلم أمس لأنها استشعرت بأنها تسرعت بعد أن راوغتها في الحديث،  
وقد عادت الي بيتها على أمل أن تجد زوجها هناك، ولكن إذا طال انتظاره  
سير اودها الشك في هذا القطع.

- لا عليك يا عمدة سأنقلهما.

قال العمدة، وقد اعتصره اليأس حتى طحنه وفتته، كما تدور الرحي فتسوي  
الحبوب كحبات الرمل الناعمة:

- لقد سئمت من تلك القرية، الكل تكالب علينا، وأصبحت لا طاقة لي في  
التصدي لمزيد من الأعداء، ولا تقبل مزيد من المصائب، وليس لنا في تلك  
القرية أرضا ولا أهل، آن الوقت أن نترك تلك القرية ونذهب إلي أرضنا،  
ونتفرغ لها، نزرع ونقلع ونكون فيها ملوكا.

- نعم الرأي يا أخي.

- سأبيع هذا الدوار للخواجة، وأسدد ماله من دين، أرسل لعربي وأخبره  
بقدمنا غدا.



(٧٤)

بعدهما نقل عرفة الجثتين بعيداً في الصحراء امتطى العمدة الكارثة قاصدا  
حمام الخواجة، وفي طريقة لاح له جابر الذي حاول الانعطاف في إحدى  
الشوارع، لما التقت عيناه مع عيني عبد الرحيم.

انطلق والعربة تنهب الأرض من تحتها حتى وصل إلى حمام الخواجة، ترك  
العربة في الخارج ودلف إلى الداخل، لما رآه الخواجة بالغ في الترحيب به  
كالعادة أمر أحد الخدم بتجهيز حمام العمدة إلا أن العمدة رفض.

- لالا، أريدك في أمر مهم.

توقع الخواجة أن العمدة يريد قرصاً، فأخذه إلى مكتبه.

- أوامر يا عمدة.

- أريد أن أبيع الدوار.

- لم؟

- سأرحل إلى أرضي.

- هذه أرضك.

- الأرض الذي تكالب الجميع علي ليس أرضي.

- الفلاحون يحبونك.



- سأفتح أرضي للجميع، من يحبني يأتيني،  
سكت العمدة قليلا، ثم قال:

- اسمع ياخواجة لا وقت عندي، الدوار بالجرن بيت عرفة يساوي عشرون  
ألف فضة، سأبيعة لك بسبعة عشر ألفا فقط، لك مديونية عشرة آلاف فضة،  
إذن اعطني سبعة آلاف فضة، وأعطني أوراقا وخذ حجة الدوار.  
- ولكن يا عمدة..

نهض العمدة واقفا

- لا مجال عندي للأخذ والرد، عندي من يشتريه، سلام ياخواجة.  
- لا تستعجل علي هكذا يا عمدة، اجلس، سأحضر لك المبلغ.  
فتح خزينته، وأخرج أوراق العمدة، وأخرج عقد بيع، وقع العمدة وختم  
واستلم أوراقه والمبلغ وهم للقيام.  
قال الخواجة:

- سأنصحك نصيحة، كيف لرجل مثلك عنده أبعادية مترامية الأطراف،  
ومع ذلك كنت مدينا بهذا المبلغ الهين.  
لم يرد العمدة، فأكمل الخواجة:

- أنت شغلت عنها، وجعلت على رأسها فلاح أجير، عربي هذا يحسن أن  
يعزق فدان أرض، يحصد عدة أفدنة من القمح، لكن أن تجعله ناظرا على  
أبعادية مترامية الأطراف، فهذا سوء إدارة منك.

- ماذا علي أن أفعل؟

- انسب الأمر إلى أهل التخصص.

- كيف، هل عندك أحد؟

- نعم عندي، كان لي صديق يعمل في الدائرة السنوية التي تخصص أفندينا ورشي  
به البعض حتى ترك عمله، لديه خبرة كبيرة في التعامل مع المساحات

الشاسعة، هو الآن خال من العمل، إذا أردته معك فهو عندي الآن جاءني  
يسألني عن عمل.  
- ءاتني به.

اصطحب العمدة الخواجه معه إلى الدوار منتظرا عودة عرفة بالرجال.



(٧٥)

هم عثمان بالنوم على سريره، وما إن أزال الغطاء حتى وجد تحته رأس شاب مقطوعة، خرج عثمان من غرفته مذعورا، وهم أن ينادي على خادمه إلا أنه تراجع حتى لا يفتضح الأمر، حمل الرأس في جوال، وذهب بها إلى صديقه حربي الذي قال:

-من الواضح أن عبد الرحيم أصبح قطلا له مخالف، تحول إلى جواد جامع  
لن يستطيع  
أحد أن يمتطيه ثانية.





أخذ المركب يمزح عباب صفحة النيل الرائقة بفضل شراع منتصب،  
وتجديف هين من الرجال، ولا صوت يُسمع سوى صوت حفيف أشجار  
الكافور العالية على ضفتي النيل، قرص الشمس يتأهب للزوال بعد أن دكن  
لونه وصفحة النهر رائقة لآتشي بأي تقلبات، اقترب المركب من المرسى  
الخشبي حتى صار بموازته، انتفض عرفة ليأخذ بيد أخيه على جسر خشبي  
وضعه عربي ليربط بين المركب والمرسى، بعدها أخذ بيد الخواجة، ثم  
حمل عرفة الطفل، ونزل به.

تقدم عربي يعانق العمدة بحرارة:

- يا مرحبا يا عمدة، يا مرحبا يا رجل، أرضك نورت يا عمدة.

- يا مرحبا بك يا عربي، كيفك وكيف الرجاله.

- عايشين الحمد لله، لا ينقصنا سوى وجودك ما بيننا يا عمدة.

عانق عربي باقي الرجال متسائلا عن أحوالهم.

تقدم الرجال إلى الأرض ليظهر أمامهم خيمة كبيرة منصوبة، نظر العمدة

لعربي متسائلا ليحيب:

- هذه الخيمة ستباتون فيها للصباح لحين البدء في بناء دوار يلقيق بجنابكم

يا عمدة، فالاستراحة أصبحت غير صالحة للسكنى بعد المطرة الأخيرة.

يدور حول الخيمة قط أبيض يتضور جوعا باحثا عن طعام، دخل العمدة والخواجة وعرفة الخيمة فتبعهم القط، أشعل عربي مصباحا بدد به ظلام الخيمة، على إثر إشعال المصباح لاح في وسط الخيمة خروف مشوي يعلو قروانة أرز، تساءل العمدة:

- أنتو مجهزين وليمه ولا إيه؟

- دا فضلة خيرك يا عمدة.

أخذ الجميع يتحدث عن وضع الأرض والمحاصيل، وإذا ما كان هناك مضايقات من عزة الباشا المجاورة، وعين العمدة ترمق القط الذي اقترب من الوليمة، قرر العمدة أن يستجمع تركيز الجميع ليشتت تركيزهم عن القط الذي أخذ يلتهم من الوليمة.

حكى لهم عن أشياء من قبيل الممطالة، وعينه ترمق القط بين الحين والآخر. قطع عربي الحديث قائلاً:

- قربو من الطعام، كلو وارتاحوا والصباح نكمل كلام.  
قال العمدة:

- وأنت مش هتاكل معانا، ولا إيه.

- لا أنا هاكل مع الرجالة.

خرج عربي وصحب الرجال وابتعدوا، مد عرفة يده في الوليمة ليصيح العمدة بعدما ضرب يده فسقط اللحم هامسا:  
- انهض وتأكد أن عربي ابتعد بعيدا.

زام عرفة الذين كان يتضور جوعا، وانصاع متعجبا، والخواجة صامت لا يتكلم.

تأكد عرفة بعدم وجود أحد حول الخيمة، فقال العمدة:

- الوليمة مدموس فيها سم.

عرفة: من أين عرفت؟

- انظر إلى هذا القط الذي سبقكم في الأكل منها، يزوم بعدما سال لعابه وبرقت عينه.

عرفة: يادي الوقعة السوداء يا ولاد.

العمدة: من الواضح أن عربي طمع في الأرض بعد ما أحضرت متعاوننا مع حربي وعثمان، ولا بد هذه المرة من رد فعل قوى يجعلهم يعلمون بأننا لن نمزح بعد اليوم.

عرفة: وما العمل.

نظر العمدة للخواجة في رسالة يريد أن يوصلها له أيضا حتى لا تسول له نفسه الخيانة يوما قاتلا:

ستجز رقبتك يا عرفة، وتضعها على سرير عثمان، بعدها لن يتعرضوا لنا ثانية.



## وبعد مرور سنوات....

استوى عبد الرحيم على صهوة فرس أبيض يمشي الهوينى في خيلاء متجاوزا السرايا التي تحف بها حديقة غناء، ثم الإسطبلات والجرن الذي يدرس فيه الغلال والمخازن وآلات الحرث، عن يمينه عرفة وعن يساره كلا من ناظر الدائرة والباشكاتب يركب كلا منهما حمارا يتخلف خطوة أو خطوتين عن فرسي العمدة وعرفة، أخذ العمدة في حث فرسه على السير على المشاية الذي تمر بين الأراضي، فدادين على مد البصر لانهاية لها، لما رأوه الخولة قادم من بعيد هرعوا من أسفل شجرة الصنصاف مهرولين إلى أماكنهم خلف الأنفار مطوحين بخيزرانتهم في الهواء تارة، وعلى ظهور الأجرية تارة، يتولى كل أجري خط من خطوط القطن ينظفه، كل تربيعة مقسمة إلى خطوط يفصل بين كل تربيعة والأخرى قناية صغيرة، هبط العمدة الذي تخطى القناية في رشاقة، بينما سقط الباشكاتب عمدا في القناية ليضحك العمدة.

ضحك الجميع، واسترسل الباشكاتب في ضحكات متقطعة يكافئ بها نفسه، قال العمدة:



-يخبيك يابشكاتب أفندي.

وابور بخاري بالغ الضخامة في جوفه لهب، يلقيه رجلان أطنانا من الحطب فينث من أعلاه دخانا أسود كثيفا، ويسحب من جوف الأرض ماء رائقا يدفع به في قناة من الطين تحمله إلى داخل مزارع شاسعة. لما استقر العمدة بأبعديته ابني لنفسه ولعرفة سرايا كبيرة على رأس الأرض تطل على النيل، وأطلق على مجموع الأرض اسم دائرة أو تفتيش البنهاوي، كان قد قرر أن يستفيد من كل فدان فيها بالتنسيق مع الخواجة الجديد ناظر الأبعدي، وحتى لا يغرق الخواجة نفسه في تفاصيل قد تجهده عن وظيفته الأساسية، وهي التخطيط العام للاستفادة التامة من تلك المساحات فأسند إدارتها إلى جرجس أفندي؛ ليكون بمثابة مديرا عام التفتيش المفوض بإدارته، إذ كان عليه أن ينظم أمور الزراعة ويرتب العمال اللازمين لها، ويدير حركتها، وكان لديه دراية واسعة في إدارة تفتيش الخيديوي، وكان من خريجي مدرسة الزراعة، وكان معروفا عنه الحزم والصرامة؛ حيث كان باستطاعته السيطرة على جميع العاملين بالتفتيش، بالتنسيق بين الخواجة والعمدة وجرجس أفندي تم تعيين مجموعة من "النظار" لمعاونة جرجس أفندي، يختص كل واحد منهم بالإشراف على قسم من أقسام المزرعة، وعليه أن يقرر ما يزرع بذلك القسم من المحاصيل وفق الطاقة الإنتاجية للأرض، ويرتب الأيدي العاملة اللازمة للزراعة، ويشرف على إصلاح الجسور والقنوات، وعلى ري المزروعات في الأوقات المحددة لذلك، كما تم تعيين لكل ناظر عدد من "الخولية" يتولى كل واحد منهم الإشراف على عدد معين من الفلاحين، تم تحديد رواتب شهرية لموظفي التفتيش وسكن مجاني، تم التخطيط جيدا لاستفيد التفتيش من الفلاحين، فقد تعددت ضروب معاملتهم، فكان هناك أجراء يقيمون بالتفتيش بصفة دائمة، وعرفوا باسم "التملية" أو "القرارية"، ولم يكن هناك أساس ثابت لمعاملة "التملي"

فكان يتقاضى أحيانا أجرًا عن كل يوم عمل، ينقص قليلا عن أجر العامل الذي يجلب من خارج أراضي التفتيش، وهذا التخفيض في الأجر نظير إقامته وأسرته بمساكن التفتيش.

وثمة نوع آخر من الفلاحين عرفوا بالأجرية، وهم أولئك الذين كانوا يجلبون من خارج أراضي التفتيش للمعاونة في الأعمال التي تتطلب عددا كبيرا من الأيدي العاملة كالبذر والحصاد ونحوها وهي العمالة الموسمية، يعمل الأجرى من الشروق إلى الغروب ويتخلل العمل فترة قصيرة للراحة ساعة الظهر.

تلجأ إدارة التفتيش إلى أحد المقاولين ليمدها بالأيدي العاملة مقابل الحصول على نسبة معينة من أجور أولئك العمال الأجرية، فتزيد النسبة كلما قل عدد العمال وتقل بزيادة العدد، وذلك خلاف النسبة التي يحصل عليها المقاول من العمال، وكان معظم الأجرية من الفلاحين المغدمين والكثير من صغار الملاك الذين يملكون مساحات ضئيلة من الأراضي التي تعجز عن أن تفي بالقوت الضروري لهم ولأولادهم، فكانوا يلتمسون سبيل العمل في التفتيش في مواسم البذر والحصاد لزيادة الدخل.

- أصبحت أخافك يا عبد الرحيم منذ أن طلبت مني قتل عربي، أمر عارض هذا؟ أم هي الطريقة التي ستعامل بها في أيامك القادمة.

عبد الرحيم: كنت تعيب في الطيبة؟، ودائما ماكنت تذكرني بمواقف أيبك؟ عرفة: فرق بين التهور والشجاعة، الشجاعة منبتها القلب وشجاعة أيبك كانت مغلفة بالحكمة والذكاء؛ لذا جلس على كرسيه آمناً إلى يوم موته، بل ضمن كرسيه لك ربع قرن.

عبد الرحيم: جبروت أيبك كان ظلما تحاول أن تجمله بإضافة الحكمة، فلا بد أن تعي هذا جيدا، وإلا أصبح العالم أشبه ما يكون بغابة متخمة بالوحوش الضارية، عالم تتسلط على رقابه حفنة من الظلمة امتلكت قوة لم تجد مجالا لاستخدامها إلا في إشاعة الظلم والقهر، فتجعل من جبروت القوة وسيلة للابتزاز والإذلال، ونتيجة الجبروت بطشا وظلما وطغيانا، لا داع لجعل منه بطلا، وهو كان ظالما، ليس أحد في هذه الدنيا يستحق أن نعلق به قلوبنا لتبليغ محبتنا له عنان السماء إلا الله وحده، سواء كان أبا أو أما أو ولد أو زوجة، فكل بني آدم يعتريه النقص والعيب.



سكت عبد الرحيم قليلا، وعرفة منصت، ثم أكمل:

إذا لم تكن ذئبا على الأرض أجردا

كثير الأذى بالت عليك الثعالب.

قال عرفة: الضربة التي لا تسم ظهرك يابن أبي تقويه.

-حقاً قلت فقد تعلمت مما سبق أن هناك ثمّة خيط رفيع بين الطيبة والسداجة، فرق بين نقاء النية والغباء، وإن لم تفتن لذلك يكون الوقوع صيدا سهلا للخداع والمكر، فالصراع بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة صراع أزملي لا نهاية له حتى يوم القيامة، وإذا كان هناك نوع من البشر طيبين بالفطرة، فإن هناك نوعا آخر من البشر غلبت عليهم نزعة الشر وتملكتهم، حتى بدأوا يسخرون من الطيبة ويصفونها بالغباء والعجز والضعف والمهانة. يُحكى أن ثعبانا استيقظ ضميره فجأة، وأراد أن يكفر ويكف عن إيذاء الآخرين، فسعى إلى راهب يستفتيه في أمره فنصحه الراهب بأن يتحى من الأرض مكانا معزولا، وأن يكتفي بالنزر اليسير من القوت تكفيرا عن جرائمه، ففعل ذلك لكنه لم يسترح؛ لأن مجموعة من الصبيان جاءوا إليه فقتلوه بالأحجار، فلم يرد عليهم فشجعهم ذلك على أن يذهبوا إليه في كل يوم ويقذفوه بالأحجار حتى كادوا يقتلوه.

فعاد الثعبان مرة أخرى إلى الراهب يسأله، فقال الراهب: أنت في الهواء نفثة كل أسبوع؛ ليعلم هؤلاء الصبية أنك تستطيع رد العدوان إذا أردت ذلك، فعمل الثعبان بنصيحة الراهب فابتعد الصبية عنه واستراح.



اعتلى الشيخ محفوظ أريكة خشبية عتيقة أسفل جذع داخل بيت ابتناه في تفتيش العمدة، يمسك في يده خيزرانة طويلة يستطيع الوصول بها لآخر طفل بمجلسه، اعتاد أن يقاجئ الرهط الجالس أمامه ذوي الوجوه المكفهرة الكثيبة بلهب ظهورهم بتلك الخيزرانة، حينما تسول لهم أنفسهم الحديث في حضرته دون استئذان، بدأ سيدنا اليوم أمرا سليمان بتسميع لوجه، تقدم سليمان بخطوات مترددة ورأس منكس، استجمع شتات نفسه، ثم قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهو يميل بجذعه للأمام ثم العودة إلى الخلف، وكأنه يحث الآيات على الخروج، بسم الله الرحمن الرحيم، لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد... ووالدي ماله ولد!!!!!!

وهنا تهاوت خيزرانة سيدنا على ظهر سليمان الذي أخذ يتفرض من جراء القذيفة التي تهاوت عليه، وفي الحال استحضر بكاء مزيفا ونشيجا مصنوعا؛ ليحث سيدنا على التوقف، تمتم سيدنا غاضبا:

- احنا نبعت للعمدة بقى ونشوف الموضوع دا!!!

وبعد محاولات مريرة ومضنية من سيدنا لتصحيح الآية له، إلا أن سليمان الذي انتحى جانبا يذرف الدمع، وظل متشبثا بقوله!

وهنا حانت التفاتة من سيدنا ناحية السلاح الأخر، فلكة عتيقة مصنوعة من شومة خشبية مثبت في طرفيها حبل يأخذ شكل القوس، تم وضع قدمي سليمان مابين الشومة والحبل، ثم تم برم الشومة فثبتت القدم. تم رفع الشومة إلى أعلى لينهال سيدنا ضرباً على قدمي سليمان الذي حاول يائساً التملص من الفلكة، ولكن هيهات فأخذ بالصراخ واستعطاف سيدنا بالدعاء له ولأولاده وأبيه وأمه وأن يرى سيدنا في أعلى المراتب والدرجات وأن يوسع الله عليه كتابه ويزيد من تلاميذه، ولكن هيهات فقد اعتاد سيدنا على مثل هذه الوسائل التي في العادة تستجلب الرحمة، ولكن سيدنا حصن قلبه وغلق منافذه تماماً لمثل تلك التوسلات.

وبعد ما انتهى سيدنا قال سليمان بأعلى صوته:

- لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ.
- تهللت أسارير الشيخ محفوظ، وضحك العمدة عالي الذي قال:
- براوه عليك ياواد سليمان، تعالى في حضن أيبك ياولد.

تم في ٢٦/١٢/٢٠٢٠

والله ولي التوفيق

تم الاستعانة بالعديد من الكتب التاريخية عن تلك الفترة أبرزهم

١- تاريخ مصر في عهد الخيديو إسماعيل للمؤلف (إلياس الأيوبي).



# قائد ولسن الطجين

تدور أحداث الرواية حول جريمة قتل تمت في  
الريف داخل طاحون مملوك لأحد العمد عام ١٨٦٤م  
وما يتخلل تلك الفترة من أحداث تاريخية وصراعات  
بين طبقات المجتمع المختلفة.



محمد فرحات، مهندس معماري

f Farahat458@yahoo.com

تصميم الغلاف | يوسف السيد



النشر الدولي والتوزيع